الكاتب

للثقافة الانسانية والتقدم

AL KATEB
FOR HUMAN CULTURE
AND PROGRESS

١٣٦

ايلول ١٩٩١
- السنة الثانية عشرة -
No. (163) September 1991

• المجتمع المدني والمسؤولية التاريخية • كي لا تقوم لهم قائمة
• ذكريات في تاريخ فلسطين الاجتماعي • النقابة المصرية والتجارب
• مسلسل أبيض وسوبرماشوب والعنصرية المقنعة • الحركات الطلابية

Digitized by Birzeit University Library

الكاتب
للثقافة الانسانية والتقدم

العدد (١٣٦) ايلول ١٩٩١ - السنة الثانية عشرة - No. (136) September 1991

AL KATEB
FOR HUMAN CULTURE
AND PROGRESS

Editor
As'ad Al - As'ad
P.O.BOX 20489 Jerusalem
TEL: (02) 959931

رئيس التحرير المسؤول
اسعد الاسعد

هذا العدد

صدر العدد الاول في تشرين الثاني ١٩٧٩

- المجلس الوطني والمسؤولية التاريخية. الكاتب ٢
- كي لا تقوم لهم قائمة. اسعد الاسعد ٣
- «ديمقراطية» جابر وغورباتشوف ودافعنا للتغيير. عدنان الكاشف ٥
- قراءات في تاريخ فلسطين الاقتصادي. احمد خالد عكاشة ٧
- المجتمع، الديمقراطية، الدين، الدلالات الخيالية ... الخ. كورنيليوس كاستورياديس ٢٠
- قائمة باسماء شهداء الشهر الخامس والاربعين للانتفاضة ٢٨
- الثقافة العصرية والتراث. د.وائل ابو عرفة ٢٩
- مصداقية حقوق الانسان في الغرب: ومدى فعالية الراي العام الغربي. هادي العلوي ٣١
- سليمان منصور وصنع التشكيل. ابراهيم المزين ٣٦
- الحضارات الفنية عبر العصور (٣) الفن الاسلامي وخصائصه. فاطمة المحب ٤٠
- المسرح المحلي وضرورة الكتابة المسرحية. محمد داود ٤٤
- «وداعا وصلوا حتى نلتقي». مقابلة مع بسام زعمط ٤٧
- السينما الفلسطينية: ابواب مقفلة وطاقات مهملة؟! سفيان الرمحي ٥١
- قصة قصيرة. سامي الكيلاني. يعقوب الاطرش. صافي صافي ٥٤
- شعر. يوسف حامد. منير ابراهيم. جون جوردان. سيدس حركش ٥٩
- بمناسبة العام الدراسي الجديد: خطاب الى المعلمين والمعلمات. وسيم الكردي ٦٤

لوحة الغلاف للفنان نادر الحلوة

الاشتراك السنوي بالدولار

	محليا	اوروبا	بلدان اخرى
للافراد	٣٠	٧٥	١٠٠
للمؤسسات	٥٠	١٥٠	٢٠٠

القدس - هاتف: ٠٢/٨٩٩٣٢١ - ص.ب: ٢٠٤٨٩

أول الكلام

نحن أمة لا تزال - رغم ما أصابها ويصيبها - تخرق في سباتها. ومن هدة صداعتنا وضعفنا، وعدم ثقتنا بأنفسنا، رحنا نملي النفس بما تشتهي، وهنا ثلاثة أيام دبي الصور في محارفنا العربية، وزين وجوهنا بابتسامات عريضة على شفاهنا، ونتنفس بالنصر القادم من موسكو على أيدي نفر لم نعرف عنهم هيئة، سوى أنهم انقلبوا على غورباتشوف وينلتسين، ثلاثة أيام عشناها، وكأننا انتهى كابوس عشناه وما زلنا منذ ست سنوات، تماما كما تعودنا دائما، نحن لا نفعل هيئا سوى انتظار العريس على فرس بيضاء، حتى اولئك الذين كرسوا حياتهم لشتم وسب الاتحاد السوفييتي وشيوعيته، وزعوا الحلوى وابتهجوا، وجلسوا ينتظرون «الحصان الاحمر». ترى أين كان هؤلاء حين كان الاتحاد السوفييتي وحلفاؤه معنا بكل امكانيتهم؟! وهل لو قدر للامور أن تعود الى ما كانت عليه قبل غورباتشوف، هل يبقى هؤلاء على موقفهم، ام يعودوا الى ما كانوا عليه؟! امثلنا نبقى أمة لا تتعلم من التاريخ ولا تستفيد منه؟!، أما ان لهذه الامة أن تدرك حجمها وامكاناتها، وتعتمد على نفسها؟!

المحرر

المجلس الوطني والمسؤولية التاريخية

من المقرر أن يعقد المجلس الوطني الفلسطيني اجتماعا في تونس، في الثلث الاخير من هذا الشهر، وسط أجواء غاية في الدقة، أقل ما تفرضه، تحمل المجلس لمسؤوليات المرحلة الدقيقة، وفهم طبيعتها، وبالتالي استخلاص العبر، والخروج بقرارات واضحة، تضع حدا للتقولات، التي يزخر بها الشارع الفلسطيني والعربي، على ضوء التطورات الاخيرة، التي شهدتها عواصم دول المنطقة، وعواصم بلدان أخرى، ذات العلاقة بالصراع العربي الفلسطيني - الاسرائيلي.

فاذا كانت الحرب ضد العراق، وما آلت اليه من نتائج، والتطورات الدراماتيكية في الاتحاد السوفييتي. قبل وبعد الحرب، قلبت كثيرا من المفاهيم، ووضعت القضية الفلسطينية في ميزان لم يسبق له مثيل، فان هذه المستجدات، تفرض فهما جديدا، يتساوق وأصول اللعبة بمعاييرها الجديدة، وادراكا لخطورة التعامل معها بأقل من حجمها.

فالاطراف المعنية بالتسوية، تبدو في عجلة من امرها، ورغم تباين مواقف هذه الاطراف، الا أن الطرف الرئيسي، لا يزال يصر على عدم التعامل مع منظمة التحرير الفلسطينية. وهناك شروط حتى لاشتراك المنظمة، في وفد مشترك مع الاردن.

من ناحية اخرى، فان الطرف الاسرائيلي، الذي كان يطالب بحوار دون شروط مسبقة، يضع اليوم شروطه للقبول بذلك، سواء برفض التعامل مع المنظمة كقيادة للشعب الفلسطيني، او باستثناء القدس من أية مفاوضات، بالاضافة، الى تلويح العديد من الزعماء الاسرائيليين، بعدم التنازل عن الضفة والقطاع، او التعامل مع مبدأ الارض مقابل السلام، ورفض المشاركة في المؤتمر المقترح عقده اوائل الشهر القادم، على أساس قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢.

لذا، فان انعقاد المجلس الوطني، وسط هذه الاجواء ضرورة تفرضها خطورة المرحلة، وأهمية ما يطرح، ومن هنا، تأتي أهمية هذه الدورة، وأهمية انعقادها، لتحديد المسار الذي يجب أن تسلكه منظمة التحرير وسط هذه الاجواء، والرياح العاتية التي تهب من كل اتجاه. والتي تفرض على المجلس تحمل مسؤولياته التاريخية.

«الكاتب»

Digitized by Birzeit University Library

كي لا تقوم لهم قائمة!

اسعد الاسعد

لان ما جرى في دول ما كان
يطلق عليه «حلف وارسو»، وما آلت إليه
الأمور في هذه الدول، بعد سقوط وانهيار الانظمة
الشيوعية فيها، ولان البريسترويكا والغلاسنوست، وما رافقهما
من اجراءات قلبت الامور رأسا على عقب، في الاتحاد السوفييتي، ولان
هذه السياسة التي ابتدعها غورباتشوف منذ ست سنوات، كانت بداية النهاية لتجربة
رائدة وخلاقة، استطاعت أن تحفظ التوازن، وتتصدى لهيمنة العالم الرأسمالي على العالم،
وبضمنها التصدي البطولي للوحش النازي، الذي انقض على اوروبا بأسرها، ولولا وقوف الاتحاد السوفييتي
في حينه ولولا تضحياته العظيمة، كان العالم لا يزال يعاني من مصائب وكوارث لا يمكن لاحد ان يتنبأ بها، أو يدركها.

ولأن العالم العربي، بقيادة الولايات المتحدة، يدرك تماما، أن الاتحاد السوفييتي، هو العقبة الكأداء، أمام تحقيق أطماعه، في السيطرة على العالم، كان لا بد البحث عن سياسة أخرى لتخريب هذه التجربة، والقضاء على تهديده، من الداخل، بزرع وخلق منفذين لهذه السياسة، فكان غورباتشوف ويلتسين.

قد يكون هذا تطرفا، لكن أحدا لا يمكنه أن يتصور «قتل الذات» وتدميرها، كما هو جار منذ ست سنوات، ولو كان الامر يتعلق باعادة البناء، كما يدعي أصحاب البريسترويكا. وعلى رأسهم غورباتشوف ويلتسين، فان ما يجري ليس اكثر من قتل

Digitized by Birzeit University Library

للذات، وتجريد للامكانيات.

فلو كان الامر كما يدعي اصحاب البيرسترويكا، كان على القيادة السوفييتية، أن تحقق شيئا على الصعيد الداخلي، وهي لم تنجح في ذلك ابدا، فبعد ست سنوات، تفيد التقارير الواردة من بلاد السوفييت، أن الاوضاع هناك، أسوأ بكثير مما كانت عليه قبل ذلك، أما على الصعيد الخارجي، فان أحدا لا يمكنه ان ينكر الانحطاط والدرك الذي وصلت اليه القيادة السوفييتية، وجرت معها البلاد بأسرها، ولا شك في أن ما جرى من اذلال للرئيس غورباتشوف في اجتماعه برؤساء مجموعة السبعة الصناعية في لندن مؤخرا، يعكس ما آلت اليه أوضاع الاتحاد السوفييتي في ظل قيادته، ونهجه الجديد.

ولان ما جرى ويجري، ضد منطق التاريخ، كان المراقبون يتوقعون قيام حركة مضادة، توقف هذا الانهيار، وكان الجيش، والقوات التابعة للمخابرات السوفييتية الكي.جي.بي، وقوامها ثلاثماية ألف رجل، المعول عليهم للقيام بذلك، ولا اظن أن القيادة السوفييتية، كانت غافلة عن ذلك، ولعل ذلك هو الذي أخر القيام بعدد من الاجراءات الحاسمة، كالتي نشهدها اليوم، ومنذ أواسط الشهر الماضي.

ولان هذا التهديد كان قائما، لم تستطع القيادة السوفييتية حل الحزب الشيوعي السوفييتي، وحظر نشاطاته، وهو أقسى الاجراءات وأكثرها خطورة، من بين الاجراءات والقرارات التي اتخذت، ولان هذا الاجراء بالذات، لم يكن من السهل على أحد القيام به دون مبرر يلجم الطرف الاخر، كان لا بد من خلق مبرر لتحقيق ذلك، وبرأيي، أن «بطولة» يلتسين. في التصدي للانقلاب. وظهور شفارنادزه المفاجيء، في ساحات موسكو، ليس الا جزءا من ذلك.

وبرأيي، فان دراسة متأنية، لما يجري منذ ست سنوات، لا بد وان توصلنا الى ذلك، فحتى لا يقع الانقلاب الحقيقي، كان لا بد من انقلاب وهمي، تعقبه الاجراءات التي اتخذت. ومن ثم يخرج يلتسين البطل الحقيقي، وهذا ما حصل فعلا، حيث يقف اليوم على رأس الهرم. وأما غورباتشوف فهو الرئيس الذي أعاده يلتسين الى السلطة. وهما بدون شك يحتفظان بهذه المشاعر، ويتصرفان وفقهما، وإن كان هناك من يتساءل عن دور الجيش السوفييتي وموقفه، فانني ما زلت أذكر اطراف حديث مع مراسل مجلة دير شبيغل الالمانية، قبل سنة تقريبا، حيث التقيته في مدينة القدس، وكان قادما لتوه من موسكو، قال: كنت اعتقد مثلك ان الجيش السوفييتي، لن يطول صمته، الى أن رأيت التغيير الذي أحدثه غورباتشوف في القيادات الرئيسة، ولعل هذا ما يفسر هذا الصمت، تماما كما حدث في كوادر الحزب الشيوعي السوفييتي الرئيسة.

وقد يقول قائل، كيف يمكن لحفنة من القيادات التي تحيط بغورباتشوف، أن تقف في وجه حزب كالحزب الشيوعي السوفييتي، والذي يزيد تعداده عن العشرين مليون شخص، والجواب على ذلك، في التخريب الذي حل بالحزب، وجعله عبئا على الدولة، والجماهير السوفييتية غير المنضوية في الحزب ومنظماته المختلفة، ولا شك في أن السياسة التي أدت الى تخريب الدولة بأسرها، كان يمكنها ان تقوم بنفس الدور، في الحزب ومؤسساته، خلال العقد الاخير، فكان من السهل أن ينهار الهرم بأسره، مثل حجارة الدومينو تماما، وهذا من شأنه أن يدلل على الوضع التنظيمي الكرتوني والمأساوي، الذي آل اليه الحزب وعند توفر الاسباب والمبررات لضربه، كانت ضربة قاسمة، من الصعب أن تقوم له قائمة من بعدها، وتكون بذلك انطوت اخطر الصفحات، وأزيلت أشد العقبات أمام غورباتشوف ويلتسين. لتحقيق ما سعت اليه الولايات المتحدة وشريكاتها، للقضاء على الاتحاد السوفييتي كقوة عظمى، تهدد الغرب ومصالحه في شتى بقاع العالم.

غير أن ما جرى حتى الان، ليس ما تسعى اليه الولايات المتحدة وشركاؤها تماما، اذ ان انهيار الاتحاد السوفييتي، سوف يؤدي الى تفككه، وصعود دول كانت الى وقت قريب، ضمن الاتحاد السوفييتي، وسيطرته، وبالتالي فان على الولايات المتحدة وحلفائها، التعامل مع أكثر من دولة، تملك اسلحة الدمار الشامل، وهو ما أثير مؤخرا، على لسان عدد من قادة وزعماء الولايات المتحدة ودول اوروبا الغربية، وهذا يدفعنا الى التساؤل، عما اذا كانت هذه الدول الغربية، سوف تطلب تدمير هذه الاسلحة، ونزع السلاح من «أيدي الصغار» هؤلاء، كما فعلت مع العراق، كشرط لتقديم العون الاقتصادي لها، وربما أكثر من مجرد تدمير او نزع السلاح.

من ناحية اخرى، فان غياب الاتحاد السوفييتي، عن الساحة الدولية، وانسحابه المهين، سوف يترك فراغا، لا يمكن ان يستمر كذلك، وبرأيي، ان العقد الاخير من القرن العشرين، يحمل الكثير من التغيرات الدراماتيكية، سوف تؤدي بالضرورة الى خلق محاور جديدة، بعد أن يعيد الاتحاد السوفييتي قريبا الجزر اليابانية التي يحتلها منذ الحرب العالمية الثانية، وبعد صحوة اوروبا على حقيقة ما جرى، واحتدام الصراع على تقسيم تركة الاتحاد السوفييتي بين هذه الدول، وهذا يتطلب القيام ببعض الاجراءات الضرورية، وبرأيي أن الغرب الان. يراهن على الرجل الاقوى، وهو يلتسين، الذي يسعى الى عزل غورباتشوف، الذي يبدو اكثر تسريعا للامور من غورباتشوف. وهو ما تريده الولايات المتحدة وحلفاؤها.

Digitized by Birzeit University Library

«ديمقراطية» جابر وغورباتشوف

ودافعنا للتغيير

عدنان الكاشف

الاحداث التي شهدتها دول اوروبا الشرقية خلال العامين الماضيين، وما اسفرت عنها من تغيرات سياسية عميقة اطاحت بأجهزة السلطة القديمة، وادت الى انتقال هذه الدول الى اقتصاد السوق للسير على الطريقة الرأسمالية، انتقلت هذه الاحداث الى الرأس الهرمي الذي كان يقود هذه الدول، وهو الاتحاد السوفييتي.

وبعد الموجة الهستيرية التي شهدتها دول اوروبا الشرقية ضد الاحزاب الشيوعية الحاكمة فيها انذاك، صرح جيمس بيكر وزير الخارجية الاميركية في شهر ايلول من العام الماضي مشيرا الى الاتحاد السوفييتي وبالحرف الواحد :ونحن نريد معارضة قوية ومنظمة». ورغم هذا التصريح الذي يعد انتهاكا فظا في شؤون داخلية لبلد ذات سيادة وبمكانة دولة عظمى كالاتحاد السوفييتي، فان عدم الرد او مجرد التعليق عليه من قبل اصحاب الشأن، يجب الا يُدهش احدا عما يدور اليوم في الاتحاد السوفييتي من تطورات واحداث دراماتيكية سريعة، لا يمكن لاحد ان يتكهن بنتائجها لاحقا، ولكن في نفس الوقت يجب الا تكون مفاجئة.

فمنذ ان اعلن عن الانقلاب الفاشل الذي حدث في الاتحاد السوفييتي في ٨/١٩، ظهر جليا ان كل من يعنيه الامر اخذ دوره في الاحداث سواء بشكل واضح ومكشوف او بشكل خاف ومستتر. ولكن الشيء الوحيد الذي يمكن ان يجمع عليه المرء، ان هذا الاهتمام الكبير جدا جدا من قبل امريكا والغرب بمصير الرئيس السوفييتي غورباتشوف يذكرنا بالاهتمام الكبير جدا جدا بأمير الكويت الذي ابدته الولايات المتحدة ابان ازمة وحرب الخليج. فالاول عاد الى السلطة بقوة الدولار الاخضر، والثاني عاد بقوة الدبابة والمدفع -مع خصوصية في الحالتين- وكل هذا حدث باسم الديمقراطية والشرعية والحرية وحقوق الانسان و ... و ... الخ من المعزوفة التي تردد يوميا في وسائل الاعلام الغربية عندما يتعلق الامر بمصالح الغرب واهدافه. ويتم تجاهل ذلك بتاتا عندما يتعلق الامر حقيقة، بحرية وحقوق الانسان الفلسطيني. فباسم الديمقراطية تم اعادة وترسيخ سلطة الامير جابر، وباسم الديمقراطية ايضا يتم العمل على المزيد من خلق الفوضى والجرائم والتهديد بالحرب الاهلية في كافة جمهوريات الاتحاد السوفييتي، واصبح الانقلاب الفاشل في الاتحاد السوفييتي

Digitized by Birzeit University Library

ذريعة ليس فقط للدول الغربية وليس فقط لاعلان المزيد من جمهوريات الاتحاد السوفييتي عن رغبتها في الاستقلال والانفصال، بل تعدت ذلك الى بروز حركات ومنظمات اجرامية داخل هذا البلد الشاسع لتقويض كل اركانه، ولافشال اية محاولة تبرز مستقبلا او حتى مجرد التفكير باعادة وحدته على اسس ديمقراطية سليمة. وهكذا يتم التنسيق الكامل بين البيتين الابيضين في موسكو وواشنطن، ويصبح الرئيس الروسي بوريس يلتسن الآمر الناهي في كل شيء يخص جمهوريات اخرى في الاتحاد السوفييتي، وهكذا كم يبدو ساذجا تهديد الرئيس السوفييتي بالاستقالة اذا تفكك الاتحاد السوفييتي، بعدما فكّك منظومة دول بأكملها.

لقد ادرك بوريس يلتسين، وباياحاء من زعماء الدول الغربية وخاصة الولايات المتحدة،ان فشل الانقلاب يعطيه الفرصة لتعزيز مكانته السياسية ويسرع في فرض ارائه وافكاره فيما يخص جمهورية روسيا والاتحاد السوفييتي بشكل عام. واعلن الغرب على الملأ انه يجب مساعدته بأقصى سرعة. وسيظل يلتسين القناة التي سيُنفّذ خلالها الغرب سياسته فيما يتعلق بالاتحاد السوفييتي، ولهذا فهو يعامل في تقديم المساعدة الاقتصادية للاتحاد السوفييتي، بل واكثر من ذلك يصرح بوش وبشكل فاضح ايضا، نحن نريد ان نعرف لمن سنوجه هذه المساعدات لان كل الجمهوريات تحتاج مساعدة!! رغم ان هذه المساعدات يمكن ان يكون الاتحاد السوفييتي في غنى عنها لو استطاع ان يقطع دابر منظمات الاجرام، وحتى الاجرام المنظم، الذي يستولى على مقدرات شعوب بلاده.

ان هذه المساعدات تشترط الخنوع التام من جانب السوفييت الى اصحابها، وهذا ما لمسه الجميع خلال العام الماضي سواء في السياسة الداخلية او الخارجية للاتحاد السوفييتي.

لقد جاء غورباتشوف في عام ١٩٨٥ الى السلطة، وفتح عهدا جديدا في تاريخ الاتحاد السوفييتي، على اساس كسر وخلع كافة القيود التي كانت مفروضة على الناس والجماهير فيما يتعلق بحرية التعبير، وحرية النقد على الممارسات الخاطئة، التي كان يرتكبها هذا المسؤول الحزبي او ذاك. واعلن عن سياسة جديدة فيما يخص التعامل مع الجماهير، ورغم قصر هذه الفترة الزمنية، فان اخطاء عديدة وخطيرة قد ارتكبت بحق الديمقراطية وحرية التعبير ايضا، توجت بتطبيق سياسة الفرد الواحد. واليوم وبعد فشل الانقلاب وبصفته امينا عاما للحزب، يصبح بين ليلة وضحاها ليس فقط متنكرا لماضيه، وانما يشن هجوما عنيفا على حزبه الذي تركه امس ويتم الاعلان عن وقف نشاطاته واعتباره خارجا عن القانون، فهل هذه هي الديمقراطية؟! وهل هذه هي الحرية والتعددية السياسية؟! ربما يكون هو او غيره من الذين تركوا الحزب او تخلوا عن ماضيهم قد امضوا عشرات السنين في صفوفه، وبالتالي اصبحت عندهم عقيدة راسخة بمُثل العدالة الاجتماعية والمساواة والحرية والديمقراطية، فهل يعقل محاربة هذه المثل اليوم وبهذه السرعة؟!! وهل يتم ذلك عن قناعة جديدة تكونت خلال ايام قليلة، ام ارضاء ليلتسين واسياده في البيت الابيض الواشنطني؟!!

ان خطر حرب اهلية في مختلف الجمهوريات السوفييتية قائم بشكل كبير جدا، نظرا لتركيبة هذه الجمهوريات السكانية، واذا ما اندلعت هذه الحرب، فان من شأنها ان تهدد السلم العالمي نظرا للترسانة النووية الضخمة التي يمتلكها الاتحاد السوفييتي حاليا، وللخروج من هذا التهديد، ربما يفكر الغرب بتجميع كل هذه الترسانة في جمهورية روسيا الاتحادية، ومن ثم يتخذ قرارا في الامم المتحدة للتفتيش عن اسلحة الدمار الشامل في باقي الجمهوريات كما حصل مع العراق؟!!

ان الوضع في الاتحاد السوفييتي اليوم، سوف تصوره الولايات المتحدة لنا نحن -كشعوب عربية- بأن لا امل الا بالتماشي مع رغباتها والخضوع لسياستها، باعتبارها سيدة العالم الجديد، وهذا يجب ان يوقظ فينا على اختلاف مآربنا ومشاربنا الفكرية والسياسية الدافع الذاتي لتغيير واقعنا السياسي والاجتماعي للانعتاق كليا من كافة اشكال الاستبداد والديكتاتورية، ولن يتم ذلك الا باعتماد اسس جديدة للتعامل بين الحركات الوطنية بعضها ببعض، وبينها وبين الجماهير الشعبية العريضة لمواجهة اميركا على نفس الاسس والشعارات التي ترفعها، ولكن على طريقتنا نحن وليس على طريقتها هي كما حصل مع جابر وغورباتشوف.

١٩٩١/٨/٢٨

اعلان

تعلن ادارة مجلة الكاتب ان طرأ تغير على رقم هاتفها واصبح رقم الهاتف الجديد ٩٥٩٩٣١ - ٠٢ بدلا من ٨٥٦٩٣١ - ٠٢

Digitized by Birzeit University Library

قراءات

في تاريخ فلسطين الاقتصادي

اعداد: احمد خالد عكاشة
كلية العلوم والتكنولوجيا
خان يونس - قطاع غزة

(٢)

مرحلة الحكم العثماني

التقسيمات الادارية العثمانية:-

خضعت الاقطار العربية الى الحكم العثماني منذ العام ١٥١٢م في عهد السلطان سليم الاول، وقد تم السيطرة على بلاد الشام في العام ١٥١٦م بعد انتصاره على الحاكم المملوكي قانصوة الغوري في موقعه مرج دابق (١) وقد ظلت الاوضاع الادارية لهذه الاقاليم كما كانت عليه في عصر المماليك الذين كانوا يقسمون البلاد الى اقاليم والاقاليم الى ممالك، والممالك الى نيابات، ولذلك تم تقسيم بلاد الشام في العصر المملوكي الى نيابة حلب، نيابة حماه، نيابة دمشق، ونيابة طرابلس ونيابة الكرك (٢) الا ان العثمانيين بدلوا الاسماء قليلا واطلقوا اسم «الولاية» على بعض النيابات فتم تقسيم بلاد الشام في هذا العهد الى ثلاث ولايات ولاية دمشق وولاية طرابلس وولاية حلب وفي العام ١٦٦٠ تم وضع ولاية جديدة هي ولاية صيدا واشتملت ولاية حلب على تسعة سناجق (الوية - جمع لواء) اما ولاية دمشق فقد اشتملت على عشرة الوية وولاية طرابلس على خمسة سناجق، وفي العام ١٨٦٤ تم توحيد ولايتي دمشق وحلب وكانت فلسطين جزءا من ولاية صيدا الذي كانت عكا مركزها الاول غير ان هذا المركز تم تغييره الى بيروت في العام ١٨٤٠ عند عودة الحكم العثماني الى الشام مرة اخرى (٣) وقد تم تغيير اسم الولاية السابقة الى ولاية بيروت، التي اصبحت تحتوي على لوائين من الارض الفلسطينية اضافة الى الويتها الاصلية وهذان اللواءان هما لواء عكا، ولواء نابلس اما لواء القدس فتم فصله عن هذه الولاية في العام ١٨٨٧ ليتم وضعه تحت سلطة ولاية الاستانة مباشرة وذلك بعد ان لاحظت الدولة العثمانية الاهتمام الغربي والصهيوني بزيادة حجم اتصالاتها بمدينة القدس - وارسال البعثات التبشيرية والدبلوماسية اليها. وقد ضم لواء عكا (٤) خمسة اقضية وهي قضاء عكا وقضاء حيفا وقضاء صفد وقضاء طبرية وقضاء الناصرة، اما لواء نابلس فقد ضم خمسة اقضية هي قضاء نابلس وقضاء جنين وقضاء بني صعب وقضاء جماعين وقضاء البلقاء - اما لواء القدس فقد احتوى على ستة اقضية وهي قضاء القدس وقضاء يافا وقضاء غزة وقضاء الخليل وقضاء بئر السبع وقضاء العوجا (الحفير) على الحدود المصرية الفلسطينية.

وفي اشارة الى نبذة عن هذه الالوية السابقة يمكن القول بأن لواء عكا (٥) يعتبر من اكبر الوية ولاية بيروت مساحة الا ان عدد سكانه اقل من هذه الالوية.

اما لواء نابلس فقد تعرض الى تقلبات في الوضع الاداري له حيث خضع لولاية الشام (ولاية دمشق) ثم لولاية صيدا ثم ولاية القدس الى ان استقر في العام ١٨٨٨ تحت ادارة ولاية بيروت عند تشكيلها في هذا العام ويحتل هذا اللواء المرتبة الثانية بعد لواء عكا في المساحة. وبالنسبة للواء القدس فقد جعلته الدولة العثمانية لواء (متصرفيه) خاصا بعد تحريره من ولاية دمشق في العام ١٨٧٤ واصبح يخضع لسلطة الاستانة مباشرة.

Digitized by Birzeit University Library

التقسيمات الادارية في فلسطين

ولاية بيروت

لواء عكا

قضاء عكا
يشمل ٣ نواحي، ٥٨ قرية
٣ نواحي:
ناحية الساحل تشمل ١٨ قرية
ناحية الشاغور تشمل ١٥ قرية
ناحية شفا عمرو ٢٥ قرية

قضاء حيفا
يشمل ناحية واحدة، ٢٥ قرية
ناحية قيسارية
وشمل ٢٥ قرية

قضاء صفد
وتشمل ناحيتين فقط
ناحية ترشيحا
ناحية جسر بناب يعقوب

قضاء الناصرة
وتشمل ناحية واحدة فقط
ناحية صفورية

قضاء طبرية
ويشمل ناحيتين
ناحية الغور
ناحية الشفا

لواء نابلس

قضاء نابلس
ويشكل ٤ نواحي، ٩٦ قرية
ناحية جماعين وتشمل ٤٥ قرية
ناحية مشاريق البتياري ويشمل ٢٩ قرية
ناحية مشاريق جرار ويشمل ٧ قرى
ناحية وادي الشعير وتشمل ١٥ قرية

قضاء جنين
ناحية الشعراوية الشرقية
ناحية مشاريق جرار/ثم فصلهما عن نابلس

قضاء بني صعب
ناحية وادي الشعير
ناحية بني صعب
ناحية الشعراوية

قضاء جماعين
ناحية جماعين الاولى
ناحية جماعين الثانية

قضاء البلقاء
لا يوجد فيه اي ناحية

ولاية الآستانة

لواء القدس

قضاء القدس
ناحية بيت لحم، ناحية حيفا
ناحية رام الله
ناحية اريحا
ناحية عبوين

قضاء يافا
ناحية يافا
ناحية نعلين
ناحية الرملة

قضاء غزة ٤ نواحي/٤٨ قرية
ناحية غزة وتشمل ١٦ قرية
ناحية خان يونس وتشمل ٥ قرى
ناحية المجدل وتشمل ١٦ قرية
ناحية الفالوجا وتشمل ١١ قرية

قضاء الخليل
يشمل هذا القضاء
ناحيتين ٦٢ قرية تضمان

قضاء بئر السبع
لا يوجد اي نواحي وقرى

قضاء العوجا الحفير
لا يوجد اي نواحي وقرى

مصدر المعلومات في هذا الجدول هو فلسطين خلال الحرب العالمية الاولى وما بعدها ١٩١٤-١٩٢٠ تأليف د. بهجت صبري، جمعية الدراسات العربية

Digitized by Birzeit University Library

الاوضاع الاقتصادية في العهد العثماني

اولا: الاوضاع الزراعية

أ- الارض وعلاقات المسلكية

استندت الدولة العثمانية في نظام حكمها * في بلاد الشام التي تم وصفها بأنها تم فتحها بالقوة على النظام العسكري الحربي وارتبطت الاوضاع الاقتصادية وخاصة الزراعة التي كان لها الوزن المرتفع نسبيا على ذلك النظام فكانت الارض والاقطاع توزع حسب مجهود الشخص الحربي وخدمته العسكرية في هذه الدولة ولتوضيح ذلك يمكن القول بأن الدولة العثمانية عند سيطرتها على اقليم الشام قامت بتقسيم الارض الى قطاعين مما (٦) (١) نظام الاقطاع الحربي (٢) نظام الالتزام.

(١) نظام الاقطاع الحربي

ويتم تقسيم الارض الزراعية الاقطاعية في الدولة الى اربعة اقسام هي:-

١- نظام «تيمار» ويمكن وصف هذا النظام بأن مساحته صغيرة نسبيا مقارنة مع الانواع الثلاثة الاخرى من الاقطاعات، ويطلق على صاحب هذا النوع من الاقطاع وهو التابع الاقطاعي يطلق عليه «تيمارجي» ويبلغ ايراد مثل هذا النوع حوالي ثلاث الاف اقجة ويتعين على هذا الاقطاعي ان يقدم للدولة العثمانية ما يقارب من اثنين الى اربعة فرسان بخيولهم واسلحتهم وعتادهم. ويتم اخضاع ذلك النوع من الاقطاع الى نظام التفتيش الذي يقوم به موظفو الحكومة المختصون والتابعون للدوائر المالية في الدولة العثمانية.

٢- نظام «زعامت»

وتعتبر مساحة هذا النظام من الاقطاع اكبر من مساحة النوع الاول «تيمار» ولكنها اقل من مساحة النوع الثالث «خاص»، ويطلق على صاحب هذا النوع من الاقطاع «الزعيم» ويبلغ ايراده لصاحبه ما يقرب من مائة الف اقجة مقابل ان يقدم هذا الاقطاعي في وقت الحرب للدولة العثمانية ما يقرب من عشرين فارس مزودين بأسلحتهم وخيولهم وعتادهم او ان يقدم فارس عن كل خمسة الاف اقجة ويخضع مثل هذا النوع من الاقطاع كسابقه «تيمار» لنظام التفتيش الذي يقوم به موظفو الحكومة المختصون والتابعون للدوائر المالية.

٣- نظام «خاص»

يختلف هذا النوع عن سابقيه من الانواع الاقطاعية بأن مساحته كبيرة نسبيا اذا ما قورن بهما، ويمنح هذا النوع من الاقطاع بصفة خاصة للولاة (جمع والي) الذين يقومون في العمل في المجالات الحكومية ويقدمون اعمال كثيرة للدولة. ويتم نزع ملكية هذا النوع فور وفاة الوالي او في حالة انتهائه من العمل في الخدمة الحكومية، كما انه لا يخضع لنظام التفتيش الذي يقوم به موظفو الحكومة المختصون من الدوائر المالية.

(٢) نظام الالتزام (٧)

وقد عملت الحكومة العثمانية بهذا النظام بعد فشل نظام الاقطاع الحربي وظهور العديد من المساوىء له. وقد خضعت كل من اقاليم الشام والعراق بنظام الالتزام سنة ١٨٥٨ وهذا النظام يؤدي الى قيام اصحاب النفوذ وذوي الشأن في السيطرة على الارض الزراعية حيث انه يقضي بقيام شخص ذو نفوذ وثرى بجباية وتحصيل الضرائب المفروضة على الفلاحين في قرية معينة او مجموعة من القرى ولمدة زمنية معينة ويطلق على هذا الشخص بالملتزم، ويتوجب علية قبل البدء في عمله ان يدفع مبلغا من المال للدولة يتحدد بناء على تقديرات للايرادات الناتجة من تحصيل ضريبة سنة كاملة من المنطقة التي سيعمل فيها والتي يطلق عليها «دائرة الملتزم» ويوجد لهذا الملتزم مساعدين له في عمله هم شيخ القرية الذي يقوم بدور الوساطة بين الملتزم واهالي القرية، واما المساعد الثاني فهو المباشر ومهمته هي تسجيل جميع المدفوعات التي يقوم الفلاحون بدفعها وذلك في سجلاته ودفاتره ويقوم بتسليمها للملتزم، واما الثالث فيقوم بتنفيذ اوامر شيخ القرية ويقوم بالقاء القبض على كل من يتأخر في دفع المستحقات عليه وينفذ العقوبات المادية شدهم ولذلك يطلق على هذا المساعد لفظ «المشد» واما الشاهد فيقوم بتسجيل جميع البيانات التي تتعلق بالارض من حيث مساحتها وتقسيمها واسماء الفلاحين الذين يقومون بالزراعة ومقدار الضريبة المفروضة على كل فلاح منهم، اما الصراف فيقوم بجباية وتحصيل الاموال حسب هذه السجلات والدفاتر المتوفرة لديه، وقد تجاوز هذا الصراف حدود عمله في اوقات متعددة وقام بجمع مبالغ تزيد عن المبالغ المطلوبة من الفلاحين ويحتفظ بالفرق في هذه المبالغ لصالحه الخاص. وتجدر الاشارة اخيرا ان السلطات العثمانية قسمت الاراضي من حيث صلاحيتها للزراعة الى ثلاث انواع (٨) اراضي عالية الجودة واراضي متوسطة الجودة واراضي غير صالحة للزراعة، كما ان هناك نوعين من الاقطاع انتشرا في بلاد الشام مما الاقطاع الحكومي «سابق الذكر» والاقطاع الطائفي وهو الذي يتعلق بالطوائف وقد ساد نظام الاقطاع الطائفي بشكل خاص في لبنان.

ب- تأثيرات النظام الاقطاعي على الوضع الزراعي

(١): أثار على الفلاح الفلسطيني

كان لنظام الالتزام ونظام الاقطاع الحربي من قبل وتطبيقه في بلاد الشام

Digitized by Birzeit University Library

(٩) اشد الأثر واعظمه قساوة على غيرها من البلاد العثمانية ومن مظاهر هذه الاثار:-

١- ادخلت الدولة العثمانية تجديدات واضافات الى نظام الالتزام حيث اوجدت نظام والمالكانة» في اوائل القرن السابع عشر حيث للملتزم الحق بالابقاء على عمله مدى الحياة بعد ان كان لفترة معينة وقد تركت هذه الخطوة آثارا سيئة على فلاحو ولايات الشام حيث ان هذا الملتزم وفق نظام المالكانية اعتبر نفسه انه المالك الحقيقي للارض الزراعية (١٠) واصبح يشن حربا قاسية ويجمع الضرائب بكميات غير محدودة من الفلاحين وكثيرا ما تعرض الفلاحين للطرد من اراضيهم بهذه الطريقة.

٢- حاول الفلاح الفلسطيني ان يرفع صوته ضد هذا الظلم الذي لحق به من الاقطاعيين الا انه لم يجد من يسمع له ويرفع عنه الظلم فساد التذمر بين اوساط الفلاحين.

٣- ادى اهمال الدولة العثمانية بشئون الفلاحين وبالرعايا في الدولة الى تردي الاوضاع الصحية والاجتماعية وانتشار الامراض والاوبئة بين الفلاحين وهذا يؤدي الى ضعف الانتاجية الزراعية.

٤- ادى احتكار مجموعة من الاقطاعيين للاراضي الزراعية الى عدم استغلال الكثير من الاراضي وزاد من الوضع سوءا عدم وجود قنوات وطرق حديثة للري.

٥- ارتفعت تكاليف المعيشة بالنسبة للفلاح الفسطيني نتيجة للزيادة الهائلة في الضرائب فاصبح الفلاح لا يستطيع زراعة ارضه والاعتناء بها مما حدا به الى التخلص منها وذلك بالتنازل عنها لاشخاص معروفين بالولاء للدولة العثمانية الذين لم يعانوا من القوانين والانظمة الاقطاعية لانها اختلفت في طريقة التطبيق على هؤلاء الاشخاص وهي عكس الطرق التي طبقت على الفلاحين.

(٢): آثار على ملكية الاراضي الزراعية

ادى نظام الالتزام الذي وضعته السلطات العثمانية بين عامي ١٨٥٦، ١٨٥٨ الى ضياع الكثير من الاراضي الزراعية من ايدي الفلاحين الفلسطينيين وذلك بعد التراكمات السيئة التي لحقت بهم منذ وجود هذه الدولة في العام ١٥١٦ ووضعها لنظام الاقطاع الحربي الذي خلق الاساس والبناء الاقطاعي في فلسطين، واضاف نظام الالتزام آثارا جديدة الى النظام السابق. فاصبح الملتزم يعتبر نفسه المالك الحقيقي للارض واخذوا يرغمون الفلاحين على دفع مبالغ كبيرة نظير المحاصيل الزراعية التي يزرعونها وهذا ادى بدوره الى ترك معظم الفلاحين لاراضيهم وامتناعهم عن زراعتها حيث ان المحصول يعود في النهاية الى الاقطاعي عن طريق الضرائب، كما ان الاقطاعي زاد من تعسفه ضد الفلاحين فأخذ يرغمهم على دفع الضرائب بدون النظر الى حجم الايرادات التي يحصلون عليها بعد انتهاء الموسم الزراعي فأخذت الديون تزداد على الفلاحين وتتفاقم حدتها مما دفع ببعضهم الى محاولات التخلص من هذا العبء الجديد وذلك عن طريق نقل ملكيتها عن طيب خاطر الى المخاتير. والوجهاء اعتقادا منهم بان الارض ستبقى لهم بعد زوال الحكم العثماني، فأصبحت الملكيات في الاراضي الزراعية تتوسع على حساب الفلاحين واخذ النظام الاقطاعي يزداد سوءا وينتشر على التراب الفلسطيني وهذا النوع من الاقطاع هو ما يطلق عليه الاقطاع العربي حيث ان كبار الملاك الذين تواجدوا بهذه الطريقة هم من العرب.

جدول (١) عدد كبار الملاك والمساحات التي تحت ملكيتهم ونسبة ملكية الفرد الواحد منهم في كل منطقة (١١) «سنة ١٩٠٩»

اسم المنطقة	عدد المالكين	عدد الدونمات التي يملكونها	نسبة ملكية الفرد الواحد
القدس والخليل	٢٦	٢٤٠٠٠٠	٩٢٣١
منطقة يافا	٤٥	١٦٢٠٠٠	٣٦٠٠
نابلس وطولكرم	٥	١٢١٠٠٠	٢٤٢٠٠
منطقة جنين	٦	١١٤٠٠٠	١٩٠٠٠
منطقة حيفا	١٥	١٤١٠٠٠	٩٤٠٠
منطقة الناصرة	٨	١٢٣٠٠٠	١٥٣٧٥
منطقة عكا	٥	١٥٧٠٠٠	٣١٤٠٠
منطقة طبرية	٦	٧٣٠٠٠	١٢١٣٦
قطاع غزة وبئر السبع	٢٨	٢٠٠٠٠٠٠	٧١٤٢٨
مجموع مساحة الاراضي	١٤٤	٣١٣١٠٠٠	٢١٧٤٣

Digitized by Birzeit University Library

اما النظام الثاني وهو سيطرة وتغلغل الاقطاع الاجنبي كان نتيجة لابتكار نظام الضمان الذي تولد في احشاء نظام الالتزام الاقطاعي.

ادى ابتكار نظام الضمان الذي مارسته الدولة العثمانية ضد الملتزمين الى زيادة نفوذ اليهود والاجانب في المرافق الاقتصادية في فلسطين بشكل عام وفي ملكية الاراضي بصفة خاصة مما ادى الى تسرب الاستيطان الصهيوني والاستعماري في فلسطين ويقضي نظام "الضمان" في هذا العهد بان يقوم الملتزم بتعيين مجموعة من "المصرفيين" الذين يقومون بالحصول على براءة ذمة من الدولة العثمانية تمنحهم صفة الضمان وذلك نظير مبالغ كبيرة من المال يدفعونها للسلطان العثماني ويشترط في الضامن ان يكون ثري ولديه اموال كثيرة حتى يستطيع تسديد الاموال في حالة عدم وفاء الملتزم بها، وتغلغل هؤلاء المصرفيين الذين كان معظمهم من اليهود والانجليز بين احشاء نظام الالتزام واخذوا يحلون تدريجيا محل الملتزمين (١٢). وفي النهاية اصبحوا يملكون مساحات واسعة من الاقطاعيات في فلسطين الامر الذي سهل في النهاية من تواجد مستعمرات يهودية كاملة في اخصب الاراضي الزراعية الفلسطينية خصوصا في الساحل الفلسطيني.

كما ادى هذا النظام الى وجود ما يسمى حاليا بأملاك الغائبين حيث ادى بيع الاراضي الفلسطينية بطريقة المزاد الى وجود الملاكين للاراضي الفلسطينية ولكنهم يسكنون خارج هذه الديار، وبسبب ظروف ما سيكونون بعيدين عنها، ومن السهل عليهم التنازل عنها.

جـ - الاوضاع الزراعية والانتاج الزراعي

رغم الحالة الصعبة التي خضع لها الفلاح الفلسطيني في الفترة العثمانية الا ان الاقطاعيين حاولوا جاهدين الابقاء على الوضع الزراعي وانتاج المحاصيل باحسن صورة وذلك تمشيا مع المصالح الخاصة لهؤلاء الاقطاعيين حيث يوفر تحسن الانتاج الزراعي وزيادة المحاصيل الزراعية في فلسطين لهم من زيادة في الخراج والايرادات الناتجة عن فرض الضرائب عليهم، ويمكن تتبع المحاصيل التي تواجدت في فلسطين في تلك الفترة من خلال الاحصاءات التي وردت في جدول (٢) الذي يوضح المساحة المزروعة في فلسطين وجدول (٣) الذي يوضح هذه المساحات المزروعة وكمية الانتاج السنوي بالطن واما الجدول (٤) فيمكن معرفة كميات الانتاج من خلال كمية الصادرات السنوية من هذه المحاصيل وقيمة هذه الصادرات بالجنيه الفلسطيني.

(١):- الحبوب في فلسطين:

تواجدت في هذا العهد بعض الانواع من

جدول (٢) المساحة المزروعة بالدونم، لواء القدس سنة ١٨٩٥، ١٩٠٩

المحصول	سنة ١٨٩٥	سنة ١٩٠٩
محصول الحبوب	١٠٦٠٠٠٠٠٠	١٠١٨٨٠٤٢٠
محصول البقول والخضار	٣٧٠٠٠٠٠ *	
الاشجار المثمرة	٢٢٣٠٤٠٠	٢٢٠٠٠٠٠
اشجار الحمضيات	٦٠٦٠٠	٣٠٠٠٠٠
مجموع المساحات المزروعة	٢٠٢٠٠٠٠٠٠	١٠٤٣٨٠٢٤٠

* لم تتوفر المعلومات الكافية من محصول البقول والخضار والاغلب ان الرقم شمل مجموع السنتين المذكورتين من عدنان العامري/التطور الزراعي والصناعي الفلسطيني/منشورات صلاح الدين. نيسان ١٩٨١

جدول (٣) مساحة الاراضي المزروعة وكمية الانتاج لسنة ١٩١٣

المحصول	المساحة بالدونم	الانتاج بالطن
محصول القمح	٤٦١١٠٠٠	٣٣٩٨٥٠
محصول الشعير	٣٢٨٠٤٠٠	٢٠٠٧٧٢
محصول الذرة	١٩١٠٢٥٠	١٨٥٥٠٠
محصول السمسم	١٤٢٠٠٠٠	٥٩٠٢
مجموع محاصيل الحبوب	١٠١٣٢٠٦٥٠	٧٩١٢٤
محصول العنب	٣٧٠٣٦٠	٢١٠٢٨١
المجموع الكلي	٢٠٢٩٢٠٦٦	١٧٩٠٥٢٩

Digitized by Birzeit University Library

محاصيل الحبوب منها القمح والشعير والذرة والسمسم، وكانت المساحات من هذه الاراضي الزراعية والتي يزرع فيها الحبوب تتراوح بين الضعف والقوة حتى العام ١٨٩٥ بلغت المساحة المزرعة بالحبوب في فلسطين ما يقارب من ١,٦٠٠,٠٠٠ دونم وفي العام ١٩٠٩ تناقصت هذه الكمية من المساحة لتصل الى ١,١٨٨,٤٢٠ دونم ويستمر التناقص في المساحة المزروعة بالحبوب لتصل الى ١,١٢٢,٦٩٠ دونم عام ١٩١٢. وفي اطار البحث في مساهمة كل نوع من الحبوب في المساحة التي يشغلها فان احصاءات عام ١٩١٣ تدل على ان القمح يشغل مساحة ٤٦١,٠٠٠ دونم اي بما نسبته ٤٠,٧٪ من اجمالي المساحة المزروعة بالحبوب اما الشعير فمساحته ٣٢٨,٤٠٠ دونم بنسبة ٢٩٪ من اجمالي مساحة الحبوب واما الذرة فيتم زراعتها على ١٩١,٢٥٠ دونم وبنسبة ١٦,٨٪ والسمسم تتم زراعته على المساحة ١٤٢,٠٠٠ دونم وبنسبة ١٢,٥٪ من المساحة الكلية المزروعة بالحبوب، وبالنسبة للانتاج السنوي بالطن فان القمح كان معدل انتاجه ما يقارب من ٣٤ طنا لهذا العام والشعير ما يقارب من ٢١ طن اما الذرة فقد كان انتاجها ما يقرب من ١٨,٥ طن والسمسم كان انتاجه ٦ طن لسنة ١٩١٣ اما من حيث الصادرات فاننا نرى ان القمح ساهم بما مقداره ٣,٥٦ الاف جنيه فلسطيني عام ١٨٩٥، ١١ الف جنيه فلسطيني عام ١٩٠٥ اما الشعير فقد ساهم بـ ١٤٠٠ جنيه فلسطيني، ٣,٣٣٠ جنيه فلسطيني عام ١٨٩٥، ١٩٠٥ على التوالي.

جدول (٤) الصادرات الرئيسية للواء القدس عبر ميناءه الرئيسي (يافا)

«جميع الارقام بالآلاف».

المحصول	١٨٨٥		١٨٩٠		١٨٩٥		١٩٠٠		١٩٠٢		١٩٠٥	
	الكمية	المبلغ	الكمية	المبلغ	الكمية	المبلغ	الكمية	المبلغ	الكمية	المبلغ	الكمية .	المبلغ
القمح (كغم)	٣١,٥	٣٠٦٠	٢٩١٠٢	١٩٠٩٢	٦٩٠٥٨	٣٠٥٦	٠	٠	٠	٠	١٠٧٠٣٢	١١٠
الذرة (كغم)	٩٨٠٧	٧٠٨٧	٢٤٤٠٥	١١٠٢٤	٦٦٠١	٣٠٢٠	٥٢٠٥	٢٠٩٥	١٨٠٢	١٠٤٥	٠	٠
زيت الزيتون (كغم)	١٠١٠٠٦	٢٥٠٢٦	٢٩٠٨٠٦	٧٥٠٠٨	١٤٣٠٠	٢٠٦٠	٢٩٩٠٠	٩٠١١	٠	٠	٠	٠
السمسم (طن)	٢٠٤٠	٣٢٠٠٠	٧٠٢٦	٣٠٦٩	١٠٩٠٣٢	٤٢٠٧٥	٢٠٣٠	٣٠٠٥٦	٠٠٦٠٤٠	٢٩٠٢٦	٠٠٠٩٨	١٣٠٨٢
الصابون (طن)	٠٤٣	١٣٠٧٢	١٠٤١	٤٢٠٧٠	٤٠٤٤	٩٣٠٢٤	١٠٦٣	٤٤٠٧٥	٠٠٠٠٧٤	١٨٠٧٦	٠٠٢٠٢٧	٥٦٠٩١
الصوف (طن)	١٦٥٠٠٠	٢٠٤٠	٢٢١٠٧٥	٤٠٥٦	٢٤٠٠٧٧	٢٠٧	٨٣٢٠٠	١٠٣٦	١٣٠٠٠٠	١٠٣٢	٢٧٥٠٧	٤٠٥٤
البرتقال (صندوق)	١٠٦	٢٦٠٥٠	٣٠٠	٨٣٠١٢	٣٦٠	٦٥٠٠	٢٥١	٧٤٠٢١	٣٠٤	٨٦٠٥٠	٤٥٦	١١٤٠٦٥
الحنظل (كغم)	١٣٠٨	٠٨٠	٢٤٠٨	٢٠٢٠	٩٠٣٣	١٠٤٠	٢٢٠٨	١٠٨٨	١٢٠٢	١٠٤٥	٣٦٠٣	٣٠٣٣
الجلود (طن)	٣٢	٠٦٤	٢٨٢٠٣	٧٠٢٤	١٤٠	٣٠٠٨	٦٠	١٠٦١	٦٢٠٨	٢٠٩٨	٣٥٢٠٨	٨٠١١
الخمور (كغم)	٠	٠	٠	٠	٠	٠	١٣٦٥	٠	٠	٠	٣٧٠٨٤	١٢٠٥٨
الصناعات اليدوية (وحدة)	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	١٢٠٢٠٨	٤٠٥٨	٠٩٨	١٢٠٥٨
مواد اخرى	٠	١٩٠٧٧	٠	٨٩٠٣٦	٠	٦٥٠٣٧	٠	٥٢٠٣٧	٢٠٢٠	٤٠٥٨	٠	٧٧٠٠٦
البطيخ	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٢٤٠٥٠	٠	١٧٠٦٥	٠	١٨٠٨٠
المجموع		١٣٢٠٥٦		٤٤٤٠٦٤		٢٨٢٠٩		٢٤٣٠٣		١٧٩٠٣		٣٣٣٠٣٣

Digitized by Birzeit University Library

(٢) الحمضيات:

كان للحمضيات في فلسطين وما يزال دور كبير في الاقتصاديات الفلسطينية بشكل عام وفي الزراعة الفلسطينية بشكل خاص وقد تمت زراعة شجرة الحمضيات في العام ٣٠٠ هجرية ٨٨٠ ميلادية وذلك في العهد الاسلامي حيث قام المسلمون باحضار هذه الشجرة من مواطنها الاصلية في المناطق الحارة عامة ومن الهند بصفة خاصة وجلبوها الى سواحل البحر الابيض المتوسط (١٦) وقد تم بنجاح زراعتها في بعض البلدان العربية ومنها فلسطين وقد وجدت الحمضيات سوقا واسعا ومربحا لها في العهد العثماني عام ١٩٨٦ الى العام ١٩٠٩ حيث ادى هذا التوسع في اسواقها الى قيام العديد من الفلاحين الفلسطينيين باحلال شجرة الحمضيات محل بعض الانواع الاخرى من الزراعة مما ادى الى زيادة المساحة المزروعة بالحمضيات من ٦,٦٠٠ دونم عام ١٨٩٥ الى ٣٠,٠٠٠ دونم عام ١٩٠٩، وقد رأى الاستعمار البريطاني واليهود الاهمية الاقتصادية لشجرة الحمضيات فبدأوا يركزون اهتمامهم على مصادرة هذه المزروعات من ايدي العرب وقد تم بصورة فعلية تطبيق هذه السياسة حيث انخفضت نسبة ما يملكه العرب (١٧) من متصرفية القدس من المساحة المزروعة بالحمضيات من ٧٣,٣٪ لعام ١٩١٥ الى ٦٩,٣٪ عام ٢٢ لتصل الى ٤٣,٨٪ عام ١٩٣٠ بينما زادت نسبة ملكية اليهود من المساحات المزروعة بهذا الفرع من المحاصيل من ٢٦,٧٪ الى ٢٠,٧٪ الى ٥٦,٤٪ للاعوام ١٩١٥، ١٩٢٢، ١٩٣٠، على التوالي.

(٣) زراعة القطن في فلسطين:

انتشرت زراعة القطن في العهد العثماني وكانت سببا في ازدهار بعض المدن الفلسطينية بل ونهضة وارتفاع شأن بعض الدويلات التي تأسست على جزء من التراب الفلسطيني، فيقول المؤرخ الفلسطيني "اميل توما" في كتابه تاريخ فلسطين في العهد العثماني ان فلسطين زودت بعض الاقاليم الاخرى في اواخر القرن الثامن عشر بالمنتجات الزراعية المتنوعة حيث قام الريف الفلسطيني بامداد بيروت بالحبوب، والخضار والزيت وقدمت يافا محصول البطيخ، واما مدينة نابلس فقد قدمت القطن الى بيروت وحاصبيا، (تاريخ فلسطين في العهد العثماني ص٧٨)، وينقل اميل توما عن مؤرخ آخر هو "الكس كرمل صاحب مؤلف حيفا في عهد الاتراك العثمانيين" حيث يقول، وانتشرت في حيفا زراعة القمح والشعير والقطن وكان هناك اشجارا مثمرة مثل الزيتون والخضروات وشجرة التين التي كانت تزرع قرب الشاطىء كما انتشرت تربية الثروة الحيوانية فيها اي مدينة حيفا.

وكان للقطن سببا في نهوض دولة ظاهر العمر في فلسطين حيث ان القطن الفلسطيني وازداد الطلب الاوروبي عليه احد الاسباب ان لم يكن اهمها في نهضة هذه الامة والمنطقة وقد تركزت زراعة القطن في مناطق اللد والرملة والجليل. وقد ساعد على انتشار زراعة القطن في تلك الفترة نظام القروض الذي قدمه احد التجار الهولنديين للفلاحين وذلك لمصلحته الخاصة حتى

جدول (٥) تقدير عدد السكان في بعض مدن فلسطين في القرن السادس عشر

المدينة	القدس	غزة	نابلس	الخليل	كفر كنا	المجدل	اللد	صفد
عدد السكان	٨٠٠٠	٦٠٠٠	٤٣٠٠	٣٥٠٠	٢٨٥٠	٢٨٠٠	٢٥٠٠	١٢٠٠٠

مصدر الجدول هو: الاوضاع الديموغرافية في الضفة الغربية، رسالة ماجستير للباحث هاني نايف مقبول، ماجستير في الاداب، جامعة الاسكندرية، الناشر جمعية الدراسات العربية، القدس، ١٩٨٧، ص ٦٩.

جدول (٦) اماكن تواجد الاقطاعيات في فلسطين وعددها في القرن الثامن عشر

نوع الاقطاع/السنجق	زعامت	تيمار	المجموع
سنجق القدس	٩	١٦١	١٧٠
سنجق غزة	٧	١٠٥	١١٢
سنجق عجلون	٤	٦١	٠٦٥
سنجق نابلس	٧	٤٧	٠٥٤
سنجق جنين	٩	٣٩	٠٤٨
المجموع الكلي	٣٦	٤١٣	٤٤٩
من	من	من	من
مجموع بلاد الشام	١١٢	٨٦٨	٩٨٠

* Amnon, Palestine in 18th century, Jerusalem, 1973, p.295.

نقلا عن/ غزة وقطاعها. سليم عرفات المبيض، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧، ص ٢٠٠

Digitized by Birzeit University Library

يحقق المزيد من الارباح (تاريخ فلسطين ص٤٣).

ثانيا: الصناعة الفلسطينية في العهد العثماني

كانت ظروف الصناعة الفلسطينية لا تختلف من حيث خصائصها عن خصائص الصناعة في باقي الاقطار والولايات العربية التي خضعت بدورها كذلك للعهد العثماني، وقد كان لنظام الاقطاع السائد في الاقتصاد الزراعي الدور الكبير والاثر الفعال لعرقلة التطور الصناعي في هذه البلدان، فقد عمل الاقطاعيون جاهدين للاستفادة من النظام الاقطاعي واخذوا بالعمل على جمع اكبر كميات ممكنة واكبر حجم ممكن من الثروات المالية والنقدية لحسابهم الخاص ونقل الفائض من هذه الاموال الى خارج حدود البلدان العربية حيث يتواجد كبار الموظفين والمسئولين في الحكومة العثمانية وقد اسهم تسرب الثروات المحلية الى الخارج في عرقلة ومنع تكوين فائض من الاموال التي امكن الاستفادة منها محليا واعادة استثمارها في الوسائل التي تساعد وتعمل على الرقي بالعملية الصناعية ومواكبة التطورات التي بدأت تظهر في الدول الاوروبية التي اخذت تكشف عن الغبار التي تراكم على كاهلها جراء الاقتصاد الاقطاعي الذي ساد فيها منذ العصور الوسطى، وأخذت هذه الدول الاوروبية بالعمل على تشجيع وتنمية الاكتشافات العلمية والتقنية وتوفير الاموال الكافية لتطويرها. اذن يمكن القول بأن الفترة التي سبقت الحرب العالمية الاولى لم تشهد تطورا صناعيا بالمعنى العصري للقطاع الصناعي (٢٠) واعتمدت معظم الصناعات في فلسطين على الزراعة، وارتبطت بها، ولذلك فان الصناعة الفلسطينية في العهد العثماني تتميز بانها صناعات استهلاكية بسيطة وتقترب الى الاسلوب الحرفي حيث ان عدد عمالها بسيط جدا، الهدف منها غالبا ما يكون للاستهلاك الذاتي، وهذا لا يمنع من وجود بعض الفروع الصناعية التي تعتبر اكثر تطورا من ناحية نسبية وهذا التطور في بعض الفروع يرجع في الاساس الى ارتباطها في الخارج فهي معدة للتصدير الخارجي مثل صناعة الخمور التي اعتمدت على زراعة العنب، وقليلا من صناعة الصابون، ولم تؤلف الصناعة في مساهمتها في الاقتصاد الوطني الا بنسبة لا تزيد عن ١٠٪ من اعتماد السكان في معيشتهم عليها، ومن ناحية الملكية الصناعية فان هذه الصناعات في تلك الفترة تتركز في الايدي العربية ما عدا صناعة الخمور التي عمل اليهود فيها.

اهم الصناعات في فلسطين:

صناعة وعصر الزيت

احتلت صناعة عصر واستخراج زيت الزيتون في فلسطين اهمية كبيرة نظرا لانتشار اشجار الزيتون في فلسطين حيث ان عدد اشجار الزيتون في العام ١٩١٠ قد بلغ ما يقرب من ٣,٦ مليون شجرة (٢١) وقد انتشرت معاصر الزيت في بعض المدن الفلسطينية مثل حيفا وعكا وغزة، وقد بلغ عدد المعاصر في منطقتي عكا وحيفا ما يقرب من ٣٠ معصرة تدار بقوة الماء حسب احصاءات عام ١٩١٢ وقد بلغ معدل الانتاج في هذه المعاصر ما يقرب من ٧٠٠٠ طن زيت.

صناعة الصابون:

انتعشت صناعة الصابون في القرى الفلسطينية منذ عام ١٨٤٠ وبعد انتشار معاصر الزيت فيها حيث اعتمدت صناعة الصابون على زيت الزيتون، وانتشرت مصانع الصابون بصفة خاصة في المدن نابلس، وحيفا ويافا، وغزة، وقد بلغ عدد محلات صناعة الصابون في منطقة نابلس فقط ما يقرب من ٣٠ مصنع تنتج ما يقرب من ٥٠٠ طن الى ١٠٠٠ طن سنويا حسب عام ١٩١٢ وقد بلغ عدد عمال هذه المصانع ما يقرب من ٦٠٠ عامل وتم تصدير جزء منها للخارج بانتاج حوالي ٢٠٠,٠٠٠ جنيه فلسطيني في ذلك العام، اما منطقة حيفا فقد وصل معدل انتاجها ما يقارب ٣٠٠ طن بينما اقترب معدل الانتاج السنوي لمنطقة يافا الى ٣٠٠ طن

صناعات اخرى

وجدت في بعض مدن وقرى فلسطين بعض الصناعات الاخرى مثل:

صناعة النسيج التي انتشرت في المجدل والقدس وغزة وقد بلغ عدد محلات النسيج في مدينة المجدل حوالي ٥٠٠ نول ويعمل فيها حوالي ٤٦٧ عامل وعاملة، وصناعة الخزف: والتي انتشرت في القدس والرملة وغزة، وصناعة دبغ الجلود في المدن الخليل ويافا والقدس الى غير ذلك من الصناعات.

جدول (٧) بعض انواع الصناعات في المدن الفلسطينية وعدد العمال في كل صناعة (٢٢)

الصناعة	المدن الصناعية	عدد العمال
الخزف	القدس، الرملة، غزة	٢٥٩
النسيج	القدس، المجدل، غزة	٤٦٧
دبغ الجلود	القدس، الخليل، يافا	٨٢
البسط والسجاد	القدس، يافا	١٥٦
صناعة الزجاج	الخليل	٣٩
صناعة الصابون	نابلس	٦٠٠
المجموع الكلي		١٦٠٣

Digitized by Birzeit University Library

ثالثا: التجارة الخارجية لفلسطين في العهد العثماني

تأثرت التجارة الخارجية في فلسطين في كثير من الاوقات في هذا العهد بالظروف الاقتصادية الصعبة التي سادت في عهد الحكم العثماني حيث كان للركود الاقتصادي في فلسطين وضعف الصناعة اثر كبير في ضعف التجارة في الكثير من الاحيان، وقد زاد من صعوبة الاوضاع بداية الامتيازات والاتفاقيات التجارية مع الدول الاوروبية التي كانت تخشى اطماعها للسيطرة على اقاليم الدولة العثمانية اثر بداية فترة التغلغل الاستعماري والسياسة التوسعية الاوروبية وقد قام بعض الباحثين الاوروبيين وهو صاحب كتاب "سبعة موانىء في سوريا" (٢٣) باعداد دراسة احصائية شملت على مائة واثنين وستين سفينة كانت ترسو على ميناء حيفا في اوقات متقاربة.

جدول (٩) التجارة الخارجية عبر الموانىء الفلسطينية (بالاف جنيه الفلسطيني)

الميناء	ميناء يافا		ميناء حيفا		ميناء غزة		المجموع الكلي	
السنة	صادرات	واردات	صادرات	واردات	صادرات	واردات	صادرات	واردات
١٩٠٨	٥٥٦٠٣	٨٠٣٠٤	٣٧١٠٧	٣٥٥٠٥	٢٠٦٠٢	٧٢	١١٣٤٠٢	١٢٣٠٠٩
١٩٠٩	٥٦٠٠٩	٩٧٣٠١	-	-	٤٩٠٢٦	٧٢	٦١٠٠٦٦	١٠٤٥٠١
١٩١٠	٦٣٦١٠١	١٠٠٣٠٤	٧٠٠٥	٣٩٩٠١	٨٥٠٥٥	٧٢	٦٩١٧٠١٥	١٤٧٤٠٥
١٩١١	٧١٠٠٦	٦٩٩٠٩	٩٠	٣٧٥٠١	٧٧٠١	٧٢	٨٧٧٠٧	١١٤٧
١٩١٢	٧٧٤٠١	١٠٩٠	٣٤٦٠٧	٤٦٠٠٤	٦٠٧	٩٦٠٤	١١٢٧٠٥	١٤٦٦٠٨
١٩١٣	-	١٣١٢٠٦	٧٤٥٠٤	٥٣٠	١٦٠١	١٠٨٠٣	٢٦١٠٥	١٩٥٠٠٨

لمتصرفيه القدس من خلال الجدول رقم (٤) حيث يوضح هذا الجدول الاصناف التي تم تصديرها وذلك من خلال الكميات المصدرة في كل عام، وقيمة هذه الكميات بالالف جنيه فلسطيني وقد كان القطن الفلسطيني سببا لنهوض مدينة عكا واصبحت مركزا رئيسيا في بلاد الشام زيت الزيتون فقد قارب من ٢٣٥ الف جنيه وبالنسبة لمحصول السمسم فقد وصل حوالي ٦٦١ الف جنيه والصابون زاد عن ١٢٧٤ الف (مليون وثلاث مائة واربع وسبعون الف جنيه) اما الصوف فقد بلغ حوالي ٧٠ الف جنيه فقط والبرتقال قيمته لهذه الفترة اقتربت من ١٥٠٤،٢٠٠ اي مليون وخمس مائة واربعة آلاف ومائتين جنيه فلسطيني، اما الحنطة فقد تم تصدير ما قيمته (٤٢،٥٢ الف) اثنان واربعين الف وخمس مائة وعشرين واما الجلود فقد تم تصدير ما قيمته (١٠٢،٨ الف)، وقد بلغت الخمور منذ عام ١٩٠٢ حتى عام ١٩٠٥ ما يقرب من (١٩٣٧٢٠) مائة وثلاث وتسعون الف وسبع مائة وعشرين، اما الصناعات اليدوية فقد تم التصدير فيها عبر ميناء يافا بما يتراوح من (٢٣٢٥٢٠) ثلاث وثلاثون الف وخمس مائة وثلاثون، وهي من العام ١٩٠٢ حتى العام ١٩٠٥ كذلك وقد بدأ ظهور البطيخ في الصادرات الفلسطينية ابتداء من عام ١٨٩٧ حيث وصل التصدير فيه حتى ١٩٠٥ ما يقارب من (١٨٩٦٥٠).

جدول (٨) عدد السفن التجارية التي تتعامل مع ميناء حيفا سنة ١٨٥٠.

جنسية السفينة	يونانية	فرنسية	تركية	انجليزية	اخرى
عدد السفن	٨٢	٢٤	٢٥	٢٠	١١
النسبة المئوية	٪٥٠	٪١٥	٪١٥	٪١٢	٪٨

وأضاف هذا الكاتب بأن الرسوم الجمركية عليها قد بلغت لهذا العام ما يقارب من ستمائة الف قرش اي ما يقارب ستة الآف جنيه فلسطيني (٦٠٠٠ جنيه)

كما ان ميناء يافا كان يتسع ويعمل لحساب البضائع والمنتجات السلعية من المناطق الوسطى والجنوبية لفلسطين، حتى ان هذا الميناء في نهاية القرن التاسع عشر اصبح الميناء الرئيسي في فلسطين، حيث ازدادت الصادرات من الصابون والسمسم والبرتقال كما يمكن ملاحظة الاصناف التي يتم تصديرها عبر ميناء يافا الخاضع (٢٥) وقد بلغ معدل انتاج القطن في فلسطين في الاعوام ١٨٣٠ ما يقارب من ٢٠٠ طن وقد تم تصدير حوالي ٧٥٪ منها الى الخارج، وقد شهدت السنوات ١٨٨٩ - ١٨٩٧ ازدهارا ملحوظا في الاقتصاد الفلسطيني عامة والزراعة خاصة حيث كانت قيمة الصادرات من ميناء يافا تصل حوالي ١١٠ آلاف جنيه، وقد بلغ حجم التصدير عبر ميناء يافا من القمح طوال المدة بين ١٨٨٥ اي ١٩٠٥ اي حوالي عشرون سنة ما يقارب ١٠٠ الف جنيه فلسطيني ومن الذرة لنفس الفترة ما يزيد من ١٤١ الف جنيه اما

Digitized by Birzeit University Library

(١٠) مجموع قيمة الصادرات من يافا من سنة ١٨٨٥ وحتى ١٩٠٥ (بالجنية الفلسطيني)

السنة	بريطانيا	تركيا	فرنسا	ايطاليا	مصر	روسيا	امريكا	المانيا	النمسا	دول	المجموع
١٨٨٥	٢٣٧٩٩	١٨٠٧٥	٢٩٣٥٣	١٧٠٥٥	٣٠١٤٢	٧٨٨٥	٦٠٠	-	٦٧٧٠	-	٢٠٨١٧٧
١٨٨٨	٥٠٣٠٠	٣٥٨٣٠	٣٦٢٠٠	١٥٢٠٥	٣٠٢٠٠	١٠١٨٠	٣٧٠٠	٧٢٠٠	-	١٥٥٠٠	٢٠٤٣١٥
١٨٩١	٩٩٨٠٠	٨٠٠٠٠	١٠١٠٠٠	١١٩٠٠	٤٩٠٠٠	١١٧٠٠	٢٠٠٠	١٧٠٠٠	-	٣٨١٣٠	٤١٠٥٣٠
١٨٩٥	٤٠٦٠٠	٤٩٦٠٠	٣٩٧٥٠	٣٥٠٠	١٠٨٦٠٠	٢٧٠٠	١٨٢٠	٥٢٠٠	-	٣١١٣٦	٢٨٢٩٠٦
١٩١٨	٧٧٠٠٠	٣١٥٠٠	٥٠٣٠٠	٧٢٠٠	٦١٤٠٠	١٠٠٠٠	٢٠٠٠	١٣٤٠٠	-	١٢١٥٠	٢٦٩٩٥٠
١٩٠٣	٩٥٠٠٠	٢٥٠٠٠	٣٠٠٠٠	١٣٠٠٠	٦٥٠٠٠	١٢٠٠٠	٧٠٠٠	٣٠٠٠٠	٢٠٠٠٠	٢٥٣٣٥	٢٢٣٣٣٥
١٩٠٥	١٢٢٠٠٠	٣١٠٠٠	٢٧٠٠٠	١٠٠٠٠	٨٦٠٠٠	٩٥٠٠	٩٠٠٠	٣٥٠٠٠	١٧٠٠٠	٢١٢٢٠	٢٦٧٨٢٠

جدول (١١) حركة الصادرات والواردات عبر ميناء يافا واتجاه الدول للسنوات ١٩٠٦، ١٩٠٧، ١٩٠٨

البلد	١٩٠٦ واردات من	١٩٠٦ صادرات الى	١٩٠٧ واردات من	١٩٠٧ صادرات الى	١٩٠٨ واردات من	١٩٠٨ صادرات الى
بريطانيا	١٠٥٠٠٠	١٥٧٠٠٠	١١٧٠٠٠	١٧٥٠٠٠	١٢٤٠٠٠	١٨٠٠٠٠
تركيا	٢١٠٠٠٠	٥٠٠٠٠	٢٥٧٠٠٠	٥١٠٠٠	٢٦٠٠٠٠	٥٩٠٠٠
النمسا	١٠٠٠٠٠	٢٤٠٠٠	١٢٩٠٠٠	٢٠٠٠٠	٨٥٠٠٠	١٤٠٠٠
روسيا	٤٠٠٠٠	١٢٠٠٠	٥١٠٠٠	٩٠٠٠	٦٩٠٠٠	١١٠٠٠
المانيا	٣٩٠٠٠	٤٧٠٠٠	٥٤٠٠٠	٥٠٠٠٠	٥٦٠٠٠	٤٦٠٠٠
فرنسا	٤٣٠٠٠	٤٠٠٠٠	٥٠٠٠٠	٣٠٠٠٠	٥٤٠٠٠	٣٢٠٠٠
مصر	٥٠٠٠٠	١٦٠٠٠	٤٢٠٠٠	١٠٠٠٠٠	٤١٠٠٠	١٦٥٠٠٠
بلجيكا	٢٥٠٠٠	١١٠٠٠	٣٣٠٠٠	١٠٠٠٠٠	٤٢٠٠٠	١١٠٠٠
ايطاليا	٢٠٠٠٠	١٢٠٠٠	٢٦٠٠٠	١٣٠٠٠	٣١٠٠٠	١٥٠٠٠
الولايات المتحدة	١٠٠٠٠	١٢٠٠٠	١٦٠٠٠	١٥٠٠٠	١٢٠٠٠	١٣٠٠٠
دول اخرى	١٨٠٠٠	١٩٠٠٠	٣٤٠٠٠	١٢٠٠٠	٢٢٠٠٠	١١٠٠٠
المجموع	٦٦٠٠٠٠	٥٠٠٠٠٠	٨٠٩٠٠٠	٤٨٥٠٠٠	٨٠٤٠٠٠	٥٥٧٠٠٠

رابعا: الاطماع الاستعمارية في فلسطين:

يرجع تاريخ التدخل الاستعماري في البلدان العربية الى العام ١٥٢٨ حيث عقد السلطان سليمان المشرع ابن السلطان سليمان الاول معاهدة مع ملك فرنسا في ذلك الوقت "فرنسوا الاول". وتقضي هذه المعاهدة بتجديد العمل بنظام الامتيازات التي كان معمولا بها ابان عهد المماليك وقد منحت هذه الامتيازات في ذلك الوقت حق الاقامة لجميع الرعايا الفرنسيين في اقليم الدولة العثمانية وخصوصا في بلاد الشام ومصر، وقد نصت تلك الامتيازات كذلك على عدم تعرض السفن العثمانية لنشاط السفن الفرنسية التي عملت من موانىء فرنسا الى موانىء استنبول وموانىء مصر والشام (٢٨) ولم تشكل هذه الامتيازات في حينه اي خطر يذكر اذ كانت الامبراطورية العثمانية تتمتع بالازدهار والجبروت العسكري نظرا لتركيز اهتمامها في هذا النطاق رغم تأخر مجالات الاقتصاد والزراعة والصناعة.

وبدأت حركة النهضة في اوروبا والاكتشافات الجغرافية والعلمية وظهور النقود مما اوجد مطلبا ضروريا وحيويا للاقتصاد الاوروبي المتحرر من سيطرة الاقطاع بالبحث عن مناطق جديدة توفر لها الايدي العاملة الرخيصة الممثلة بالعبيد والمواد الخام اللازمة للصناعة والاسواق الجديدة الكفيلة بتصريف الانتاج وامتصاص صدمات الازمات الاقتصادية والركود. (٢٩)

وقد تطلعت الدول الاوروبية الى بلدان الشرق العربية الغنية بثرواتها ومواردها الخام وظل يراودها حلم السيطرة على تلك الاقاليم دون ان يكون لها القدرة على التغلغل فيها، الا ان بداية فترة الاضطراب السياسي الذي ساد خلال الحملة المصرية على بلاد الشام (١٨٣١ - ١٨٤٠) وما رافقها من نزاعات اورث الامبراطورية العثمانية مزيدا من الضعف الاقتصادي والسياسي ترك بصماته الواضحة على مختلف نواحي الحياة في الولايات العثمانية.

ومن هنا اخذت القوى الاستعمارية من ذلك الحين بالتنافس الاستعماري فيما بينها والعمل على تجنيد اليهود في الوصول الى هدفها في السيطرة على الاقاليم العربية. (٣٠) فقد ارسلت بريطانيا اليهودي

Digitized by Birzeit University Library

البريطاني "موسى منتفيوري" الى محمد علي اثناء حكمه في فلسطين طالبا السماح بتوطين اليهود فيها، وارتبطت هذه الفكرة كذلك بصورة اوضح في العام ١٨٥٤ عند شق قناة السويس في مصر مع النظرة الدينية التي تطلق على الارض الفلسطينية ما يعرف ارض الميعاد، كما قام اليهودي المليونير ١٨٨٢ بانشاء اجهزة تتولى عملية شراء الاراضي الفلسطينية وتهيئها منها منظمة الاستعمار اليهودي ولم تعلن هذه المنظمة عن نفسها بهذا الاسم رسميا الا بعد عام ١٩٠٠، وقد قامت بصورة فعلية (٣١) بانشاء ما يقرب من ٤٧ مستعمرة يهودية في فلسطين حتى ذلك العام.

وقد تطلع اليهود على مر العصور التاريخية الى فلسطين كوطن يجمع شتاتهم وبدأت هذه التطلعات تقترب الى حيز الوجود عبر الافكار والنظريات الاستعمارية الغربية التي سبقة الاشارة اليها، كما انها بدأت تقترب الى الممارسة الفعلية عند نشوب الاحداث السياسية في روسيا القيصرية حيث استغل اليهود هذه الاحداث التي جرت عام ١٨٨١ بعد مقتل القيصر الروسي وتوجهوا الى القنصل العثماني للسماح لهم بالدخول الى فلسطين الا ان الحكومة العثمانية ١٨٨٢ رفضت هذا المطلب الا ان الحاح الاوروبيين المساند لموقف اليهود في هذا المطلب دفع بالحكومة العثمانية (٣٢) الى اصدار قرار في العام ١٨٨٧ يقضي بمنح اليهود حق الاقامة في فلسطين لمدة لا تزيد عن ثلاثة اشهر.

وقد لفت هذا الالحاح في الاقامة في فلسطين من جانب اليهود نظر الحكومة العثمانية باهمية بيت المقدس، بالاضافة الى اهميته من الناحية التجارية مما دفعها لتحويل بيت المقدس الى متصرفيه خاصة في نفس العام بعد ان ظل خاضعا لولاية بيروت طوال الحكم العثماني وقد واصل اليهود تحديهم للسلطة العثمانية مما دفعها في الثلاثين من ديسمبر (١٢/٣٠) لعام ١٨٩٢ (٣٣) باصدار قانون يحرم بيع الاراضي الحكومية الى اليهود بكافة جنسياتهم حتى لو كانوا من رعايا الدولة، وعند انشاء الحركة الصهيونية ١٨٩٧م وعند انشاء الحركة الصهيونية ١٨٩٧م قامت بالدعوة الى انشاء وطن قومي لليهود في فلسطين.

وعند الحملة الفرنسية على بلدان الشرق الغربي قام نابليون بونابرت سنة ١٧٩٨م بدعوة اليهود الى الاستيطان في فلسطين.

(أ) المؤتمر الصهيوني في فلسطين:

على ارض فلسطين وضد ارض فلسطين تم عقد اول مؤتمر صهيوني على ارضها في العام ١٩٠١م والهدف منه هو بصورة مباشرة تجميع صفوف اليهود وتوحيدهم وتم هذا الاجتماع الذي عقد في مستوطنة "زخرون يعقوب" ليضع خطة شاملة للسيطرة على فلسطين، كما تم ضمن هذه الخطة تقسيم فلسطين اداريا حسب المنظور الصهيوني (٣٤) الى ستة اقسام ادارية هي:

(١) منطقة بيت المقدس وتضم الخليل ومستوطنة متسة، ومستوطنة عرتوف

(٢) منطقة الرملة والمستعمرات المحيطة بها.

(٣) منطقة يافا ومستوطنة يتاح تكفا.

(٤) منطقة الناصرة وطبرية والمستعمرات القائمة فيها.

(٥) منطقة الخضيرة ومستوطنة "زخرون يعقوب" التي عقد فيها هذا المؤتمر بالاضافة الى مناطق حيفا.

(٦) مناطق صفد ومستعمرات الجليل.

(ب) بعض الاساليب الصهيونية لغزو فلسطين:

اولا: انشاء اجهزة لتمويل عملية شراء الاراضي وتهيئها. (٣٥)

(١) منظمة الاستعمار اليهودي:

وتهدف هذه المنظمة التي تم انشاءها سنة ١٨٨٢ الى انشاء المستعمرات اليهودية في جميع انحاء فلسطين، وقد اخفت هذه المنظمة انشاؤها نواياها المبيتة في الاستيلاء على الاراضي الفلسطينية، واستمر هذا التحايل طوال ثمانية عشر عاما من الزمن حتى ١٩٠٠، وقد قامت بصورة فعلية بانشاء ٤٢ مستعمرة في فلسطين.

(٢) الصندوق القومي اليهودي "الكيرن كاييمت"

ويتكون راس مال هذا الصندوق من التبرعات والاعانات والهبات وغيرها من مصادر التمويل الخارجي وكانت طرق جباية هذه الاموال يتم عن طريق وضع هذه الصناديق في الاماكن الدينية اليهودية ويكتب عليها شعارات تحريضية ضد السكان العرب وضد فلسطين ولصالح الحركة الصهيونية، وكانت هذه الشعارات تعتمد في اغلبيتها على التلفيق مثل الشعار الذي يصور ارض فلسطين انها "بلاد بلا شعب لشعب بلا بلاد".

وقد قامت الحركة الصهيونية بتأثير هذه الاموال بعمليات النهب من الاراضي الفلسطينية حيث دفعت مبالغ مغرية لبعض الاقطاعيين وكبار الملاك الذين امتلكوا مساحات واسعة من التراب الفلسطيني رغم عدم وجودهم وانتمائهم لهذه الارض وانما كان سبب امتلاكهم لها هو خدمتهم في صفوف الدولة العثمانية وموالاتهم وخنوعهم لبعض الولاة العثمانيين حسب ما كان سائدا في احشاء النظام الاقطاعي العثماني والطريقة الثانية هي قيام بعض هؤلاء الاغنياء من اليهود ووفق نظام "المالكانية" الذي تولد في ثنايا نظام الالتزام الاقطاعي - بحصولهم على صفة "المصرفي" حيث يقوم هذا المصرفي من الاثرياء اليهود بضمان ذلك الملتزم الاقطاعي مقابل تنازل الاخير "الملتزم" عن

Digitized by Birzeit University Library

جزء من الاقطاعية التي تحت سيطرته للمصرفي اليهودي، وهذا ادى الى تغلغل اليهود في ملكية الاراضي الفلسطينية.

ومن الامثلة الشهيرة على اعمال (الصندوق القومي) اليهودي ما حصل مع عائلة سرسق اللبنانية حيث كانت تسكن في بيروت والاسكندرية وتمتلك في نفس الوقت وحسب نظام الاقطاع العثماني ما يقرب من ٢٤٠ الف دونم عام ١٨٧٨ في فلسطين (٣٦) ويعيش في ذلك الوقت ما يقرب من ٤٠٠٠ نسمة امتدت على ٢٢ قرية ذات اراض ساحلية خصبة وجيدة للزراعة على امتداد سهل حيفا ومرج بن عامر.

وفي عام ١٩٢١ وبعد ان زاد هؤلاء السكان من ٤٠٠٠ نسمة الى ٨٠٠٠ نسمة في هذه القرى قامت عائلة سرسق المذكورة ببيع جميع الاراضي الى الصندوق القومي اليهودي "الكيرن كاييمت" وتم طرد جميع السكان العرب من هذه الاراضي رغم مقاومتهم الشديدة واستشهاد بعض اهاليها برصاص الانتداب البريطاني وتدمير العديد من القرى الفلسطينية في ذلك الحين نذكر منها (٣٧) جنجار، الصفاصفة، تل الفرع جالود، العفولة، تل العدس، تل الشمام وغيرها وقد وصل عدد القرى المدمرة في عمليات مثل حالة عملية سرسق السابقة ما يقرب من ٧٠ قرية كانت مقامة على افضل واجود الاراضي الساحلية الزراعية في فلسطين.

(٣) بنك انجلو - فلسطين (٣٨):

وقد تم انشاء هذا البنك في العام ١٩٠٢ وكان مقره الرئيسي هو لندن وقد تم انشاء اول فرع له في القدس عام ١٩٠٣ ثم امتدت فروع هذا البنك الى معظم المدن الرئيسية الفلسطينية والغريب في الامر ان هذا البنك كان يحمل اسم بريطانيا ولم يكشف عن طابعه الصهيوني في بداية الامر الا انه وبعد مدة من الزمن ظهر كيانه الاصلي وبدأ بتنفيذ الاهداف التي تم انشاؤه من اجلها فساعد في كثير من الاحيان وكلما امكن له ذلك بتدمير الاقتصاديات العربية الفلسطينية.

(٤) الجامعة العبرية - القدس:

حاول اليهود في العالم بزعامة "ثيودر هرتسل" القيام بخديعة السلطان العثماني عبد الحميد للسماح لهم بانشاء الجامعة العبرية في القدس تحت دوافع وهمية وانسانية وادعاءات دينية مزيفة بالادعاء بان مثل هذا المشروع في البلاد يوفر على اصحابها وابنائها من الطلاب عناء ومشقة الذهاب الى بلدان اوروبا ويحمي هؤلاء الشباب والطلاب على حد زعمهم "ذكر هرتسل في رسالته الى السلطان عبد الحميد بان انشاء الجامعة العبرية يحمي الشبان العرب من الحضارة الغربية التي تقربهم الى الانحراف" من اسلوب الحياة الاوروبية التي تتعارض مع الدين الاسلامي وتم ذلك في العام ١٩٠٢ ولكن السلطان عبد الحميد رفض هذا المطلب.

وعند قيام البعثة الصهيونية الى فلسطين في شهر ابريل لعام ١٩١٨ نجح حاييم وايزمان رئيس هذه البعثة ان يضع حجر الاساس لمباني الجامعة على ارض جبل سكوبس في مدينة القدس وعندما توجهت هذه البعثة لطلب التصريح الرسمي من السلطات الانتدابية البريطانية لانشاء هذه الجامعة رأى البريطانيون عدم ملاءمة الظروف السياسية لمثل هذه الخطوة فتم رفضها بصورة مؤقتة فقط، لحين استقرار الاوضاع، ومن الرابع والعشرين من شهر يوليو لنفس العام قام اليهود بالاحتفال بوضع حجر الاساس لاقامة هذه الجامعة بصورة رسمية حيث تم وضع اثنى عشر حجرا وذلك لربطها بالتقاليد الدينية المعمول بها عند اليهود. حيث ان عدد ١٢ هم اسباط اليهود وتم افتتاح هذه الجامعة بصفة رسمية في العام ١٩٢٥ في حفل رسمي بريطاني وتم انشاء العديد من الكليات فور بدء انشاء هذه الجامعة وكان بعضها على مبان اقيمت من قبل من المعهد التجريبي لدراسة النباتات ثم تحويله الى مباني كلية الزراعة.

ويجب الاشارة في هذا الموضوع ان السلطات البريطانية كانت قد رفضت طلبا تقدم به العرب باقامة جامعة المسجد الاقصى ١٩٣١ رغم توفر جميع الامكانيات من الاموال والكفاءات العلمية في ذلك الوقت حيث (٣٩) استعدت جامعة الهند بتقديم جميع الطواقم والكفاءات اللازمة والعلمية لهذه الجامعة.

قائمة المراجع:

١) د. عبد العزيز الشناوي. الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها - الجزء الاول كلية البنات جامعة الازهر. مكتبة الانجلو مصرية - ١٩٨٠ صفحة ٩٩.

٢) فيليب حتي - تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين. الجزء الثاني - سبق ذكره ص٢٧٤، ٢٠٧.

٣) د. بهجت صبري. فلسطين خلال الحرب العالمية الاولى وما بعدها سنة ١٩١٤ - ١٩٢٠ جمعية الدراسات العربية - القدس ١٩٨٢ ص٢٨.

٤) د. اميل توما. فلسطين في العهد العثماني، الطبعة الاولى سنة ١٩٨٣، دار الفجر للطباعة والنشر - القدس ص٣٠، وكذلك د. بهجت صبري - فلسطين خلال الحرب العالمية ص٣١.

٥) د. عبد العزيز الشناوي. الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها - الجزء الثاني كلية البنات. جامعة الازهر. مكتبة الانجلو مصرية - ١٩٨٠، ص٩٧٩.

* يمكن اعتبار الدولة العثمانية الاساس الاول والمسبب التاريخي لوجود النظام الاقطاعي في العالم العربي، فهي دولة اقطاعية وان اختلف نظامها من حيث التطبيق عن النظام الاقطاعي الاوروبي * د. اميل توما - تاريخ مسيرة الشعوب العربية الحديث - منشورات صلاح الدين - الجزء الاول.

Digitized by Birzeit University Library

٦) د. عبد العزيز الشناوي - الدولة العثمانية - سبق ذكره ص١٢١.
٧) د. اميل توما - فلسطين في العهد العثماني سبق ذكره ص١٠٤، د. عبد العزيز الشناوي ص١٤١.
٨) الدولة العثمانية. عبد العزيز الشناوي. الجزء الاول ص١٦٢.
٩) الدولة العثمانية. عبد العزيز الشناوي. الجزء الاول ص١٧٥.
١٠) د. احمد سعد - التطور الاقتصادي في فلسطين. دار الاتحاد للطباعة والنشر ايار سنة ١٩٨٠. ص٢٤ وكذلك، د. شريف كناعنة - الايديولوجية الصهيونية وتهجير السكان العرب من فلسطين. "قضايا. القدس. العدد الخامس نوفمبر ١٩٩٠ ص٨.
١١) د. أحمد سعد - التطور الاقتصادي في فلسطين. سبق ذكره ص٣٦.
١٢) د. فيليب حتي تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين. سبق ذكره ص٢١٥. وكذلك د. اميل توما - تاريخ فلسطين في العهد العثماني سبق ذكره ص١٠٧.
١٣) د. احمد سعد - التطور الاقتصادي في فلسطين. سبق ذكره ص٤١.
١٤) د. احمد سعد - التطور الاقتصادي في فلسطين. سبق ذكره ص٤٢.
١٥) اولا: الارقام الواردة في الجدول بالالاف.
ثانيا: تم دمج جدول (١) + (٢) واختيار سنوات عشوائية من هذين الجدولين.
ثالثا: وحدة كل من القمح والذرة وزيت الزيتون والحظل والجلود بالكيلوجرام، اما وحدة الصناعات فهي بالوحدة والبرتقال بالصندوق، وباقي الاصناف فهي بالطن. المصدر: مروان البحيري. الصادرات الزراعية لمتصرفية القدس الشريف ١٨٨٥ - ١٩١٤ مرايا الاقتصادي - القدس. أب ١٩٨٩ - العدد الثاني ص ٦٢ -٦٨.
١٦) محمود شاكر. اقتصاديات العالم الاسلامي. مؤسسة الرسالة - بيروت ١٩٨١ ص١٢٨.
١٧) د. احمد سعد. التطور الاقتصادي في فلسطين، سبق ذكره ص٩٦.
١٨) هاني نايف مقبول. الاوضاع الديمغرافية في الضفة الغربية - رسالة ماجستير في الاداب جامعة الاسكندرية. جمعية الدراسات العربية - القدس ١٩٨٧م ص٦٩.
١٩) د. اميل توما تاريخ فلسطين في العهد العثماني سبق ذكره. ص٢٠.
نقلا عن:- سليم عرفات المبيض. غزة وقطاعها. الهيئة العامة المصرية للكتاب القاهرة ١٩٨٧م ص٢٠٠.
٢٠) احمد سعد. التطور الاقتصادي في فلسطين سبق ذكره ص٤٢.
٢١) احمد سعد. التطور الاقتصادي في فلسطين. سبق ذكره ص٤١.
٢٢) محمد يونس الحسيني - التطور الاجتماعي والاقتصادي في فلسطين العربية القدس. ١٩٤٦م ص١٢٤ وكذلك انظر - سليم عرفات المبيض - غزة وقطاعها - سبق ذكره ص٤٠٩.
٢٣) سليم عرفات المبيض غزة وقطاعها ص٤٦١ سبق ذكره وقد نقل المعلومات الواردة عن: الكس كرمل. تاريخ حيفا في العهد العثماني ص١٢٥.
٢٤) سليم عرفات المبيض - غزة وقطاعها سبق ذكره ص٤٦٥، ٤٦٦ حيث تم جمع جدول الصادرات ص٤٦٥ مع جدول الواردات ص٤٦٦.
٢٥) مروان البحيري - الصادرات الزراعية لمتصرفية القدس - سبق ذكره ص٦٢.
٢٦) مروان البحيري - الصادرات الزراعية لمتصرفية القدس - سبق ذكره ص٦٨.
٢٧) مروان البحيري - الصادرات الزراعية لمتصرفية القدس - سبق ذكره ص٦٨.
٢٨) د. عبد العزيز الشناوي الدولة العثمانية. الجزء الثاني سبق ذكره ص٧٠٨.
٢٩) د. اميل توما. تاريخ مسيرة الشعوب العربية الحديث. الجزء الاول منشورات صلاح الدين - القدس. ١٩٧٩م ص٤٢.
٣٠) د. شريف كناعنة - الايديولوجية الصهيونية وتهجير السكان العرب من فلسطين - مجلة قضايا العدد الخامس. سبق ذكره ص٩.
٣١) د. عبد العزيز الشناوي - الدولة العثمانية. اسلامية - الجزء الثاني - سبق ذكره ص٩٩٢.
٣٢) د. عبد العزيز الشناوي - الدولة العثمانية - الجزء الثاني سبق ذكره ص٩٧٧.
٣٣) نفس المصدر السابق ص٩٨٠.
٣٤) نفس المصدر السابق ص٩٩١.
٣٥) نفس المصدر السابق ص٩٩٢.
٣٦) د. شريف كناعنة الايديولوجية الصهيونية - سبق ذكره ص١٠.
٣٧) نفس المصدر السابق ص١٠.
٣٨) د. عبد العزيز الشناوي الدولة العثمانية - الجزء الثاني سبق ذكره ص٩٩٤.
٣٩) د. عبد العزيز الشناوي الدولة العثمانية - الجزء الثاني سبق ذكره ص٩٩٧.

اسف واعتذار

نقدم اسفنا واعتذارنا الى المهندسة الزراعية سهير العسالي والصحفي محمد الاسمر لعدم تمكننا من نشر مقالتهما حول «الاقتصاد البيتي - نواة الاقتصاد الوطني» وذلك لاسباب خارجة عن ارادتنا.

Digitized by Birzeit University Library

المجتمع، الديمقراطية، الدين، الدلالات الخيالية ... الخ

حاوره: هاشم صالح

تقديم

يعتبر كورنيليوس كاستورياديس واحدا من اهم المفكرين الفاعلين على الساحة الثقافية الفرنسية حاليا، وعلى الرغم من انه من اصل يوناني، ولم يتجنس بالفرنسية الا مؤخرا (عام ١٩٧٠) الا انه كان قد قدم الى بلاد ديكارت بشكل مبكر (عام ١٩٤٥) حيث استقر نهائيا. وهو من مواليد العام ١٩٢٢، اكمل دراساته الاولى في اثينا، وذلك في مجال القانون والاقتصاد والفلسفة. وكان في البداية مناضلا تروتسكيا، ثم انشق عن الحركة وأسس مع الفيلسوف الفرنسي كلود لوفور (C.LEFORT) مجلة «الاشتراكية أو البربرية»، وظل يشرف عليها حتى العام ١٩٦٦، تاريخ انحلالها. وفي بداية السبعينات دخل كاستورياديس مجال التعليم الجامعي واصبح مديرا لاحد الاقسام في «مدرسة الدراسات العليا للعلوم الاجتماعية». وهو يشرف هناك على حلقة دراسية اسبوعية بعنوان «تأسيس المجتمع والابداع التاريخي».

ومنذ اربعين عاما وحتى اليوم اصدر كاستورياديس عدة كتب أساسية في تاريخ الفكر المعاصر، نذكر من بينها: التأسيس الخيالي للمجتمع (١٩٧٥)، مفترق طرق المتاهة (١٩٧٨)، من الاقتصاد الى الاستقلال الذاتي (مجموعة حوارات مع دانييل كوهين بنديت) (١٩٨١). ثم كتابه: المجتمع البيروقراطي (طبعة جديدة عام ١٩٩٠). كما ينبغي ان نذكر كتبه في مجال الفلسفة السياسية كتجربة الحركة العمالية المؤلف من جزئين: كيف نناضل؟ (١٩٧٤) ثم البروليتاريا والتنظيم (١٩٧٤). وايضا: الرأسمالية الحديثة والثورة، الامبريالية والحرب (١٩٧٩) والحركة الثورية في ظل الرأسمالية الحديثة (١٩٧٩). ثم كتاب: مضمون الاشتراكية (١٩٧٩). واخيرا صدر له هذا العام كتاب يحتوي على مجموعة مقالات مهمة بعنوان: العالم المقطع (او العالم المجزأ) - مفترق طرق المتاهة، الجزء الثالث.

يعني هذا، ان الرجل منخرط في صميم الصراعات الفكرية والايديولوجية التي تضطرم في الساحة الفرنسية - والغربية عموما - منذ اواسط هذا القرن. ولذا فهو لا يتردد في التدخل، من حين لاخر، في القضايا العامة عندما تتطلب خطورتها ذلك. واذا كان كاستورياديس مفكرا في شؤون الاقتصاد والسياسة والفلسفة، فانه ايضا محلل نفسي، اذ يمارس التحليل النفسي بشكل رسمي، اضافة الى نشاطه كأستاذ

Digitized by Birzeit University Library

جامعي او كمفكر معروف.و لعل ذلك هو السبب الذي منعه من احتقار قضايا الروح والنفس ودهاليزها العميقة، بل ان احد المصطلحات الاساسية التي بلورها في تاريخ الفكر المعاصر يعود الى علم النفس في أساسه، الا وهو: المتخيل الاجتماعي، والمتخيل الجذري (أو الفردي). فالمجتمع لا ينهض فقط على قاعدة الاقتصاد والماديات، وانما يرتكز ايضا على ما يدعوه بالدلالات الخيالية الاجتماعية، التي تجعل المجتمع متماسكا ومترابطا كالبنيان المرصوص بين اعضائه.

يضاف الى ذلك ان الرجل من كبار المفكرين في شؤون الديمقراطية، وكيفية تطويرها في الاتجاه الصحيح: اي نحو المزيد من الاستقلالية الذاتية كما يحب أن يقول. ولذا فهو ينتقد «الديمقراطية الغربية»، ويكتشف نواقصها من الداخل، وكيفية التلاعب بها من قبل قوى المال، والاحتكارات، والشركات الكبرى، ومراكز الضغط

١- الرأسمالية، الماركسية، الاستقلال الذاتي

---

* كرست مجلة اسبوعية باريسية «ايفنمت نوجيدي - حدث الخميس» عددا كاملا للموضوع التالي: «هل ستحصل أزمة الرأسمالية غدا؟» سؤالي هو التالي: هل سنشهد سقوط الرأسمالية بعد سقوط الشيوعية؟».

** حصلت في الماضي، أزمات اقتصادية، كذلك الكساد الذي حصل عام ١٩٢٩ - ١٩٣٣. ولكن هذه الازمات لم تؤد بحد ذاتها ابدا الى «سقوط» النظام الرأسمالي. بل وحتى مثل هذا الكساد لا يبدو اليوم محتملا، على الرغم من أنه ممكن الحصول. صحيح انه يوجد اليوم تفقر اقتصادي امريكي، والدليل على ذلك

ازمة نظامهم العسكري. وكذلك هناك مسألة الديون الضخمة المترتبة على بلدان العالم الثالث، الخ... ولكن جوهر الامر ليس هنا.

هناك أزمة اكثر عمقا في المجتمع الرأسمالي والثقافة الرأسمالية ناتجا. (وقد تحدثت عن ذلك في نصوص عديدة من كتابي الاخير: «العالم المقطع»). وهذه الازمة ناتجة عن عوامل عديدة، أولها عجز النظام الرأسمالي المتزايد عن تحقيق تناسله البشري الطبيعي. فلكي ينجح هذا النظام في ادارة عجلته فانه بحاجة الى نمط من الافراد تبدو الرأسمالية عاجزة عن انتاجهم. ينبغي أن يكون له عمال يقومون بعملهم بشكل جيد، حتى ولو كانوا مأجورين بشكل سيء، او مسيرين بشكل لا معقول (عبثي). ينبغي أن يمتلك هذا النظام ايضا قضاة، وسياسيين، وموظفين غير قابلين للفساد، أو غير فاسدين. يلزمه ايضا معلمون ومدرسون لا يرون في مهنتهم مجرد وسيلة لكسب العيش. وكل ذلك لم تنتجه الرأسمالية ابدا في حياتها، وانما ورثته من التشكيلات الاجتماعية - التاريخية السابقة عليها. وهذا ما يتبين لنا اليوم بشكل صريح فاقع. فشعار هذا النظام هو اليوم اكثر من أي وقت مضى: واربحوا اكبر قدر ممكن!» لا يهم بأي شكل ولكن اربحوا. فانا كنت قاضيا مثلا، فليس علي الا أن احكم في القضايا العالقة لمن يدفع لي أكثر. والشيء نفسه ينطبق على الموظفين. ومن هنا ينتج الفساد المتزايد الذي أخذ يصبح سمة عضوية (أو بنيوية) للنظام. ولهذا السبب لا اعرف لماذا يمكن للاجيال الطالعة ان تنتج موظفين نزيهين، او مدرسين مولعين بمهنة التدريس والتثقيف. لقد استمر هذا النظام ومارس فعاليته حتى الان بشكل جيد أو سيء. ولكني لا أرى يمكن له ان يستمر على هذا النحو الى الابد.

هناك سبب ثان للازمة العميقة للرأسمالية: انه يتمثل بالحدود التي تفرضها البيئة على «المبرر» الوحيد لوجود هذا النظام، الا وهو: التوسع المستمر للانتاج. فقد ابتدأت مشاكل البيئة تطرح نفسها بالحاح اليوم. نذكر من بينها: سخونة الغلاف الجوي، ونقص الاوزون، والانقراض المتسارع لعدد متزايد من الكائنات الحية عن وجه الارض. لقد استغلت الرأسمالية المصادر الطبيعية الاولية غير القابلة للتجدد، هذه المصادر التي كانت قد تراكمت على سطح الارض طيلة اكثر من ثلاثة مليارات من الاعوام! لقد تمثل التقدم الرأسمالي بقضم هذا الارث في مدة زمنية لا تتجاوز المائة والخمسين عاما! والان ابتدأ هذا الارث ينفذ اكثر فاكثر. ولكي نوقف مسار العالم المتسارع نحو الكارثة البيئوية، فانه ينبغي علينا ان نغير نمط الحياة، وتوجه هذه الحياة في المجتمعات الصناعية. ولكن كيف يمكن تحقيق ذلك اذا كان الشيء الوحيد الذي يقدمه النظام الرأسمالي للناس هو: الاستهلاك المتزايد لكل ما هب ودب؟.

وهناك سبب ثالث لهذه الازمة العميقة للرأسمالية، وهو الاخطر دون شك: انه يخص العالم الثالث، أي البلدان غير الصناعية. التفاوت فظيع وهائل، فنحن لو اردنا ان نرتفع بمستوى معيشتها، لا أقول الى مستوى فرنسا والولايات المتحدة، وانما الى مستوى المناطق الفقيرة في البرتغال، فانه ينبغي علينا ان نضاعف عشر مرات على الاقل من استهلاك الطاقة والمواد الاولية، الخ... وعندئذ سوف تتفاقم خطورة المشاكل البيئوية بالحجم والنسبة نفسيهما. يضاف الى ذلك وجود تفاوت ضخم بين سكان البلدان الصناعية وبقية سكان المعمورة. فنحن نعلم ان ثمن سكان العالم فقط يعيشون في شروط اقتصادية مرفهة نسبيا، وفي ظل الانظمة الليبرالية (أي

Digitized by Birzeit University Library

سكان العالم الصناعي الرأسمالي). أما بقية شعوب العالم فتعيش حالة من البؤس المدقع، وفي ظل الانظمة الديكتاتورية. وأعتقد أن هذه الحالة سوف تشغط اكثر فاكثر على النظام الرأسمالي. ولكن من الصعب أن نتنبأ بالشكل الذي سوف يتجلى عليه هذا الضغط، أو بالنتائج التي سيولدها.

* هل تعتقد ان انهيار الشيوعية في البلدان الشرقية سوف يؤثر على مصداقية الفكر الماركسي نفسه؟ من الملحوظ انه لم يعد هناك مفكرون كبار في فرنسا ينتسبون الى الماركسية...

** ان «الفكر الماركسي» قد مات منذ زمن طويل. وقد كنت قمت، فيما يخصني، بنقد جذري للماركسية في النصوص التي نشرتها عام ١٩٦٤ - ١٩٦٥ في مجلة «الاشتراكية أم البربرية» (ثم استعدتها لاحقا في كتابي: «التأسيس الخيالي للمجتمع»). والنقطة المركزية في هذا النقد للماركسية - وبالتالي لماركس نفسه - هي أنه يشاطر الرأسمالية الدلالات الخيالية نفسها (المصطلح من صنعي، وأدعي ابوته) (Les Significations imaginaires).

ما هي الفكرة الاساسية لماركس؟ الفكرة الاساسية هي أن الوفرة الاقتصادية المزعومة سوف تحل كل المشاكل الاجتماعية والسياسية، وتؤدي الى تنمية القوى المنتجة. وهذه الفكرة، جوهريا، رأسمالية. ان النظرية الاقتصادية لماركس لا يمكن ان تقف على رجليها (انظر بهذا الصدد نصي عن ماركس وارسطو في كتابي: «مفترقات طرق المتاهة»).

وكذلك المادية التاريخية، فلا يمكن أن تقف على رجليها. وماركس ليس لديه اشكالية سياسية بالمعنى الحرفي للكلمة. فهو يعتقد بكل بساطة، أنه ما ان تنمو القوى المنتجة بشكل كاف، وما ان تتحقق الوفرة الاقتصادية، حتى تنحل كل المشاكل. فلا يعود هناك أي صراع داخل المجتمع، ولا قوانين، ولا سلطة، وكل الناس سيصبحون احرارا، وكلهم سيستطيعون تحقيق ذواتهم على هذه الارض. هذه نزعة تبشيرية وطوباوية رديئة، وتعبر عن وضع يستحيل على التحقيق.

أما أنا فأرى الى الامور بشكل آخر، اذ أن الذي نهدف اليه ليس هو هذه الطوباوية، وانما ما أدعوه بالمجتمع المستقل ذاتيا (أوبناته)، انه المجتمع المؤلف من أفراد مستقلين بذواتهم، مجتمع يكون فيه الافراد احرارا ومتساوين، مجتمع تكون فيه السلطة ديمقراطية بالفعل. اقصد بالديمقراطية هنا الامكانية الفعلية لكل المواطنين في المشاركة في الحياة العامة (أو السياسية).

١١- الديمقراطية المباشرة «والديمقراطية» الغربية

* انت تتحدث غالبا عن الديمقراطية المباشرة، وتنتقد الديمقراطية الغربية؟ هل تعتقد فعلا ان الديمقراطية المباشرة ممكنة اليوم؟ وهل تعتقد لعلا بأن الديمقراطية الغربية هي «ديمقراطية مزيفة»؟

** الديمقراطية المباشرة ممكنة بشرط ان نفهم ماذا تعني هذه الفكرة، وبشرط أن نخلق الاشكال المناسبة التي تتطلبها في العالم الحديث المعقد. ففي القرن الخامس قبل الميلاد، وفي أثينا باليونان، تم تحقيق الديمقراطية المباشرة. ولكن المجتمع السياسي لم يكن يتجاوز الثلاثين الف مواطن، وبالتالي فقد كان ممكنا لهم أن يسمعوا أصوات الخطباء في مجلس الشعب (الاكليزيا Ecclesia).

من الواضح أن هذا الشكل من الديمقراطية المباشرة لم يعد ممكنا في الظروف الحالية. ولكن هناك عدة ملاحظات: ان الديمقراطية المباشرة لم يعد ممكنا في الظروف الحالية.ولكن هناك عدة ملاحظات: ان الديمقراطية المباشرة تظل ممكنة على مستوى الوحدات السكانية ذات الحجم الصغير: كالمعمل، والشركة، والمدينة الوسطى او الحي في مدينة، الخ.. ذلك أن بامكان هذه الوحدات أن تنتخب ايضا مفوضين او مندوبين قابلين للتغيير باستمرار، ويشكلون هيئات للتشاور واتخاذ القرار على اصعدة اكبر تشمل المناطق اولا، ثم البلاد باسرها لاحقا. وأما فيما يخص القضايا التشريعية المهمة، فانه يمكن لكل المواطنين أن يصوتوا بعد حصول مناقشة عامة لائقة. لقد عالجت هذه المسائل في نص يعود الى عام ١٩٥٧: «مضمون الاشتراكية» (استعدته في كتاب يحمل العنوان نفسه، ونشرته في سلسلة «١٨/١٠»، ولكن ينبغي التركيز هنا على جانبين مهمين: الاول: ضرورة ادخال نظام اللامركزيةالى اكبر حد ممكن. ينبغي على الدولة أن توكل للوحدات القاعدية (التي تضم بين عشرة الاف وثلاثين الف مواطن) حق حكم نفسها بنفسها. بمعنى آخر ينبغي تطبيق نظام التسيير الذاتي الحقيقي الى أقصى حد فيما يخص المسائل التي لا تتناقض مع دمجها في تجمعات بشرية أكبر. وهذا امر لا بد منه اذا ما أردنا أن يتعلم المواطنون الديمقراطية الحقيقية: أي اذا ما أردنا أن يساهموا فعليا في القضايا المشتركة والعامة عن طريق المناقشة والتفكير السياسي. والثاني: يخص الضرورة الواضحة لوجود مندوبين او مفوضين عن الشعب، ولكن بشرط أن يكونوا قابلين باستمرار للتبديل، وهذا هو الفرق بين تصوري للديمقراطية وبين النظام الحالي. ففي النظام الحالي نجد أنه ما ان يتم انتخاب الممثل (او النائب) حتى يصبح عمليا غير قابل للتبديل. ذلك أن مجمل النواب يخلقون على أرض الواقع حالة معينة يصبح فيها من المستحيل ازاحتهم.

Digitized by Birzeit University Library

فاعادة انتخابهم مرة بعد اخرى تصبح شبه مؤكدة (مع مخاطرة بنسبة ٥ او ١٠٪ فقط). وبالتالي فانهم يفرضون على السكان اسئلتهم وأجوبتهم. وكل انتخابات تجري حول «خيارات» مزيفة كانت قد حددت وبلورت من قبل اولئك الذين كانوا قد انتخبوا اثناء الانتخابات الماضية. (أقصد انهم يخلقون علاقات زبائنية، وشبكات سلطوية تجعل من الصعب ازاحتهم فيما بعد).

* الا يمكن القول ان هذه «الديمقراطية الغربية» هي الوحيدة الموجودة في العالم؟.

** بالطبع. واذا ما اجبرنا على الاختيار بين «الديمقراطية» الغربية وبين النظام الصيني او اي نظام آخر قائم على الحزب الواحد، فاننا سنختار «الديمقراطية» الغربية دون أي تردد. والسبب هو انها تضمن الحد الادنى من الحقوق الفردية، والحد الادنى من الحريات السلبية او الدفاعية، ولاننا نستطيع ان نجري هذه المقابلة مثلا دون ان نخشى من وجود أجهزة تنمت سرية في الغرفة. ولكن السؤال المطروح يبقى: هل هذا كاف؟ هل نحن بالفعل احرار عندما نعيش في ظل قوانين كان آخرون غيرنا هم الذين اتخذوها؟ اليس من السخف ان نتحدث عن المساواة السياسية بين كنّاس الشوارع وبين شخص آخر يستطيع، مثلا، ان يشتري قناة تلفزيونية او جريدة يومية؟.

لهذا السبب أقول: لا أعرف لماذا لا تعرض المسائل الاساسية الخالية من كل تعقيد تقني على الشعب لكي يصوت عليها، بعد أن تتم المناقشة العامة حولها بشكل كاف.

* هذا ما يفعلونه في فرنسا عن طريق الاستفتاء..

** الاستفتاء لا يستخدم تقريبا في فرنسا. وعندما يستخدم فان ذلك يتم دائما كنوع من المناورة السيّئة. وحقل تطبيقه مقلّص جدا جدا.

III المادي والخيالي

* كنت قد كتبت كتابا مشهورا بعنوان: «التأسيس الخيالي للمجتمع» الا ينطس العنوان تلك الاطروحة الماركسية التي تقول بأولوية البنية التحتية على البنية الفوقية؟ هل المجتمع مؤسس على المتخيّل، اقصد على الصور الخيالية، ام على القواعد المادية؟.

** أن الاطروحة التي تقول بأولوية البنية التحتية على البنية الفوقية» لا تعني شيئا. ما هي البنية التحتية؟ هل هي التقنية (اقصد والقوى المنتجة)؟ ولكن التقنية هي عبارة عن افكار تجسدت واقعا ماديا. من اين تجيء هذه الافكار؟ لماذا تتطور التقنية احيانا بسرعة (في العالم الحديث مثلا) ولماذا تظل احيانا اخرى ثابتة طيلة عدة قرون (اي تقريبا في كل المجتمعات البشرية الاخرى)؟ لماذا تنهض دائما تقريبا، على قاعدة البنية التحتية نفسها مجتمعات عديدة مختلفة جدا جدا؟.

ثم كيف ولماذا انقسم المجتمع الى مهيمِنين ومهيمَن عليهم، او مستغلِين ومستغلَين؟ والمهيمنون هم دائما اقلية صغيرة جدا. فكيف يمكنهم ان يحافظوا على السلطة اذا لم تكن هناك دلالة خيالية مشتركة لدى جميع الناس، بشكل يقل او يكثر؟ أقصد بالدلالة الخيالية «الفكرة» اذا شئت.

وطبقا لهذه الفكرة الخيالية فان المجتمع لا يمكنه ان ينوجد دون تراتب هرمي، اي دون أسياد، او قطاعيين، او رأسماليين أو زعماء أحزاب.

ما معنى السيارة؟ هل هي حاجة «طبيعية» أن يمتلك الانسان سيارة؟ هل هي حاجة طبيعية ان يمتلك تلفازا؟ ثم تلفازا ملونا، ثم عدة تلفزيونات بقدر عدد غرف منزله؟ كل نظرية ماركس مرتكزة على الفرضية التالية: توجد حاجيات ثابتة للانسان، وهذه الحاجيات تشبع بشكل افضل اكثر فاكثر من قبل نظام الانتاج (واذا لم تكن هذه الحاجيات ثابتة فاننا لا نعرف ماذا تعني هنا عبارة «بشكل افضل اكثر فأكثر»). كما انها تفترض ايضا بأن التقنية الحالية تتيح لنا أن نشبعها جميعا تقريبا، اذا لم تكن هذه التقنية في خدمة الرأسمالية. ولكن كل هذا خطأ في خطأ. فنحن نعلم أن الحاجيات هي من اختراع المجتمع، أو المتخيل الاجتماعي. والشيء الوحيد الذي ليس وهميا في الحاجيات هو استهلاك الفي حُرِيْرَة في اليوم. ولكن لا أحد، منذ بداية الخليقة، أكل بمقدار الفي حُرِيْرَة. لقد أكل الناس طبخة الكوسكوس المغربية، او الخبز، او السباغيتي، او السمك، او الحلزون، او الضفادع، وهم يحبونها او لا يحبونها بحسب المجتمعات التي ولدوا فيها. فالفرنسيون يحبون لحم البقر نصف مشوي او نيئا، وأما اليونانيون فيتقيئون اذا ما اجبروا على أكل اللحم النيء.

ثم هناك والحاجيات الجنسية». ولكن انظر الى العدد اللانهائي تقريبا من الطرق التي تنظّم فيها داخل المجتمعات المختلفة، او تنوع الاساليب التي اخترعها لابشر لاشباعها. الكثير من المجتمعات شرّعت طريقة تعدد الزوجات، وبعض المجتمعات شرعت تعدد الازواج (اي يحق للمرأة ان تتزوج عدة رجال دفعة واحدة). فما علاقة كل ذلك بالقوى المنتجة؟.

ان المتخيّل الذي اتحدث عنه لا يعني الاوهام او «الصور» بالمعنى المادي للكلمة، انه يعني الدلالات الكبرى التي تجعل المجتمع يبدو متماسكا ككل. وبواسطة هذه الدلالات يخلع المجتمع معنى على حياة الافراد. وهي التي توجه فعالية الكائنات البشرية. وبالتالي تعطي قيمة للاشياء

Digitized by Birzeit University Library

والافعال او تخفض من قيمتها، الخ.. وهذه الدلالات ليست متولدة لا عن «الواقع» ولا عن «المنطق»، وانما هي خلق بشري. صحيح انها مشروطة، ولكنها «اعتباطية» اساسا، اي غير محتومة. فالقوانين مثلا لم تصدر عن الله، او عن الالهة، او عن الاسلاف الاسطوريين، او عن قوانين الطبيعة او التاريخ. القوانين من صنع الكائنات البشرية. (وهي مختلفة من مجتمع الى آخر).

* وهذا ما نعرفه منذ جان جاك روسو و«العقد الاجتماعي»...

** هكذا كانت الامور دائما. فالقبيلة البدائية هي التي كانت تنتج قوانينها.

* اقصد قبل روسو كان الناس يعتقدون ان ذلك يهبط من السماء.

** نعم. وذلك لان افضل طريقة لترسيخ القوانين هي ان نقول بانها جاءتنا عن طريق الاسلاف الغابرين، وبالتالي فلا يمكن مسها. او القول بانها صادرة عن يهوه (اله اليهود) او الاله المسيحي، الخ... وبالتالي فكيف يمكن ان نخالف القوانين ذات الاصل الالهي؟ ان هذا الموقف يمثل ما ادعوه بالتبعية (أي فقدان القدرة على تقرير المصير ذاتيا) بمعنى ان القانون الذي يحكمني صادر عن آخر. وهذا يعارض ما أدعوه ايضا بموقف الاستقلال الذاتي: اي القانون الذي نبلوره بانفسنا ولانفسنا. بالطبع فان المجتمع هو الذي يخلق دائما قوانينه، كما يخلق لغته، وعاداته وتقاليده. ولكننا نلاحظ بشكل دائم تقريبا، وفي كل مكان تقريبا، انه يتخيل صدور هذه القوانين من مصدر خارجي على المجتمع. ونحن نرى بوضوح أنه لولا هذه الدلالة الخيالية لا نفرط عقد المجتمع في المجتمعات التوحيدية. (لا يمكن للمجتمع ان يتماسك او يقف على قدميه من دونها في مجتمعات أديان الكتاب: يهودية، مسيحية، اسلام).

* دونها ينهار المجتمع.

** بالطبع ينهار. وهذا الامر لا ينطبق فقط على المجتمعات التوحيدية. انظر مثلا ما يحصل في هذه اللحظة بالذات في الهند. فالدين المهيمن في البلاد (أي الهندوسية) هو من صنع بشري بالطبع، ولكنه يقسم المجتمع الى زمر او طبقات. فهناك زمر ذات امتيازات موروثة، وزمر اخرى محرومة من الامتيازات، وخصوصا آخر الزمر، اي زمرة المنبوذين، وهي تعني حرفيا: الذين لا يمسون. وهذا التقسيم مقدس، او قُل خلع عليه رداء التقديس من قبل الدين. وعندما حاولت الحكومة الحالية، المتأثرة بالغرب نسبيا، ان تتخذ بعض التدابير البسيطة جدا لصالح المنبوذين، ثار الناس كلهم، بمن فيهم المنبوذين أنفسهم!!، وحصلت صدامات دموية. لماذا؟ لان الحكومة مستّ، او هددت بتدمير العالم كما يعرفه الناس منذ مئات السنين. وهذا العالم له معنى مقدس بالنسبة لهم. وفيه يشعر كل منهم ان له مكانا مخصصا له مهما يكن بؤس هذا المكان، وهزله.

* شيء غريب بالفعل ان يستمع المضطهدون بالاضطهاد ويرفضوا تغيير النظام.

** لا غرابة في شيء. فعلى عكس ما ظن ماركس، فان الناس، سواء أكانوا مضطهدين ام لا، لا يهتمون فقط بالأكل اكثر، او بامتلاك المزيد من الثروات والارزاق. الناس يهتمون، اولا، وقبل كل شيء، بأن يكون لحياتهم معنى. وهذا المعنى يقدم دائما عن طريق الدلالات الخيالية المتجسدة في تأسيس المجتمع، والتي كان الدين عمليا وبشكل دائم حجر الزاوية فيها.

واذا كان على المجتمع ان يتحول باتجاه الاستقلال الذاتي، فانه ينبغي ان يتخلى كليا عن الفكرة التي تقول ان هناك مصدرا خارجيا على المجتمع هو الذي يؤسسه. وينبغي عليه ان يعي ان البشر هم الذين يخلقون قوانينهم.

* وهذا ما تجسد في الغرب بدءا من الثقافة الكبرى: اي الثورة الفرنسية.

** جزئيا فقط. فمثلا ما يزالون يستمرون هنا في التحدث عن وجود «قوانين طبيعية للاقتصاد»، وهي التي تجعل بعض الناس اغنياء وبعضهم فقراء. وانطلاقا من ذلك تصبح الديمقراطية مزيفة. فان تكون غنيا لا يعني فقط انك تأكل وبشكل افضل. وانما يعني انك تتمتع بسلطة سياسية ضخمة.

* ولكن سوف يوجد دائما اناس اغنى من اناس آخرين ...

** لا. هذا يعتمد على التأسيس الاقتصادي للمجتمع. وهذا ما يطرح بدوره مسألة التحول الكلي للمجتمع، وهذا ما لا نستطيع الخوض فيه هنا.

* نلاحظ عندنا، اي في المجتمعات العربية والاسلامية، ان الناس يريدون بالفعل ان يتقدموا، وان يتفجروا بعمق لكي يكتسبوا استقلالية ذاتية وحرية اكبر. ولكنهم لا يعرفون كيف. وبما ان معظم الناس فقراء، بل وحتى بائسين، فانهم يتشبثون اكثر فاكثر بالنواميس التقليدية.

** بالتأكيد. ولكن الأمر لا ينطبق فقط على الفقراء. انظر ما يحصل في العربية السعودية، او في امارات الخليج مثلا. الناس هناك ليسوا فقراء (وانا لا اتحدث هنا عن الملوك والامراء)، ومع ذلك فهم لا يريدون ان يتغيروا. والسبب هو نفسه الذي ذكرناه بخصوص الزمر او الطبقات في الهند. فهم يعتقدون ان العالم الذي يعيشون فيه لا يمكن ان يمتلىء بالمعنى الا اذا استمروا في فهم تراثهم بالطريقة نفسها.

* ولكن هناك ايضا مفكرون ينتقدون الحداثة الغربية. اذكر من بينهم على سبيل المثال جان ماري دوميناك. فهم يدعون الى اعادة الاعتبار للدين، او للتعالي. وقد ملّوا من الحداثة وفراغها المادي والاستهلاكي.

Digitized by Birzeit University Library

** اعرف جيدا. ولكن جان ماري دوميناك، الصديق العزيز جدا، رجل مسيحي، ومن المنطقي ان يفكر على هذا النحو. وهو ليس الوحيد الذي ينتقد الحداثة، او بالاحرى الثقافة المعاصرة. فانا ايضا اقوم بذلك منذ خمسة وثلاثين عاما على الاقل.

ان فراغ الثقافة المعاصرة ليس الا الجانب الاكثر اهمية من ازمة المجتمع الرأسمالي التي تحدثنا عنها في بداية هذه المقابلة. وهي تتوازى مع اضمحلال الخيال السياسي، او الابداع السياسي، ومع حشر الافراد في فرديتهم الخصوصية المعزولة، ومع ضعف الابداع الفني والفلسفي. فهل يمكن ان نملأ هذا الفراغ عن طريق الدعوة الى عودة الدين؟.

سوف اقول اولا بأنه من العبثي ان نحاول بعث الدين (انا هنا اتحدث عن المجتمعات الغربية المعلمنة منذ زمن طويل) عن طريق قرار واع او مقصود عمدا اذا جاز التعبير (قرار من فوق). فلا احد يمكنه اليوم ان يحيي في الغرب العاطفة الدينية التي خلقت الكاتدرائيات القوطية، واللحن الديني اساسا للنهضة الاولى، والموسيقى الدينية العظيمة الممتدة منذ النشيد الغريغوري وحتى مقطوعة صلاة لراحة الموتى لموتسارت. هذه اشياء لا تصنع تحت الطلب، او بواسطة قرار عقلاني. والدليل على ذلك ما يحدث عندكم في العالم الاسلامي: ما هي «الاصولية»؟ وما الذي تقدمه اليوم؟ وهل تمكن مقارنتها ولو من بعيد بالحضارة العربية الكلاسيكية العظيمة الممتدة ما بين القرن الثامن والثاني عشر الميلادي؟

اذا ما اردنا تأسيس مجتمع مستقل ذاتيا فانه ينبغي ان نزيح الدين من الدائرة العامة للمجتمع. فكل شخص ينبغي ان يكون حرا في ان يعتقد ما يشاء. ومن غير المقبول اطلاقا ان يجبره احدهم ويقول لنا:«الله يريد كذا ...» فالله ليس ملكا له. ذلك ان هذا هو موقف التبعية بعينه، ان المجتمع الحر والمستقل بذاته يتطلب افرادا احرارا ومستقلين بذواتهم. وبالتالي فانه يتطلب الاحترام المطلق للحرية، ولامكانيات كل فرد وحياته. وعلى هذا الاساس ينبغي ان يستند القانون الذي يمنع القتل، وليس على الوصايا الإلهية.

* ولكن هذا القانون موجود في كل الاديان ايضا.

** هذا ليس صحيحا. ففي معظم العقائد البدائية يستحسن جدا قتل اناس القبائل الاخرى. وفي الاديان التوحيدية الكبرى توجد هذه الاشكالية المركزية: لا ينبغي القتل، ولكن توجد استثناءات عديدة. من هذه الاستثناءات الحرب مثلا. ففي كل الحروب التي جرت بين امتين مسيحيتين كان كل جيش يمتلك اساقفته ومرشديه الذين يباركون سلاحه. وحسب معرفتي فان الحروب لم تكن معدومة بين المسلمين او بين العرب.

لكن على الرغم من ذلك يبقى هناك سؤال اكثر عمقا. فالكائن البشري لا يمكن ان يعيش دون ان يبحث عن معنى لحياته، او دون ان يخلق هذا المعنى، وكما قلنا فهذا هو الدور الذي يمكن ان تملأه الاديان، او الذي كانت تملؤه، والتي تبدو اليوم عاجزة عن الاضطلاع به. والمجتمع المستقل ذاتيا لا يمكنه ان يكون فقط «ديمقراطيا» بشكل اجرائي او آلي، وانما ينبغي عليه ان يخلق الدلالات المعنوية والاعمال الفنية وغير الفنية. وانا متأكد انه سيفعل ذلك. ولا استبطع ان افعل ذلك مكانه، لأنني لست نبيا.

IV الماركسية والتحليل النفسي: مسألة المعنى

* انت انطلقت من الماركسية في البداية، ثم انتهيت بك المطاف الى التحليل النفسي. وهذا المسار مدهش اذا ما عرفنا ذلك الاحتقار الذي تكنّه الماركسية للأشياء النفسية.

** نعم. ان استخدامك لكلمة الاحتقار في مكانه بالفعل. واعتقد ان هذا الاحتقار كاف لوحده لكي يدين الماركسية. المجتمع مؤلف من كائنات بشرية، وهذه الكائنات هي اولا وقبل كل شيء كائنات نفسية. وهذه النفسية مؤلفة اجتماعيا عن طريق تأسيس المجتمع. وكل شيء يعتمد فيما بعد على هذه الاقلمة الاجتماعية. وبالتالي فهناك منطقة احتكاكية مهمة جدا جدا بين العاملين النفسي والاجتماعي، او بين التحليل النفسي والسياسي.

(ينبغي علينا ان نفهم ما الذي يحدث في اعماق النفسي لكي نستطيع البدء بالتفكير بمسائل في مثل خطورة الاشياء التالية: كيف يمكن ان يوجد اناس ينتسبون بالملايين الى النازية او الى الستالينية؟ لماذا وكيف تحارب المسيحيون والمسلمون طيلة قرون وقرون، واعتبر كل واحد منهم الآخر بمثابة الكافر؟ ما الذي يؤدي بالكائنات البشرية لأن تصبح قتلة بالآلاف دون اي «مصلحة فردية»؟ كيف ولماذا يستطيع الانسان ان يَقتُل ويُقتَل لأجل فكرة، اي لأجل دلالة خيالية؟.

* وهذه الفكرة الغى عليه من حياته نفسها ...

** بالطبع. ولكن هذا لا يمكن فهمه اذا لم يحاول النفاذ الى اعماق الروح البشرية، الى اعماق النفس العميقة. وهذا ما يحاول ان يفعله التحليل النفسي. لهذا السبب، وبغض النظر عن اهميته العملية، فاني اجد له اهمية نظرية كبرى. ان جزءا كبيرا من المراجعة التي اقوم بها على نظرية المجتمع والتاريخ، وعلى المشاكل السياسية، مستلهم ايضا من وجهة نظر التحليل النفسي. وكنا قد رأينا ذلك من قبل عندما ضربنا المثال عن الزمر او الطبقات في الهند.

Digitized by Birzeit University Library

* ولكن الناس يتحدثون كثيرا هذه الايام عن موت التحليل النفسي، وعن لا علميته كنظرية، وان البيولوجيا او البيولوجيا المصبية سوف تحل محله موضوعيا.

** هذا هو الوهم العلموي (لا العلمي) الذي يواجوهنا به من وقت لآخر. فهم دائما يقولون: غدا سوف نحل آخر الغاز الكون الفيزيائي. غدا سوف يفسر لنا علم الاعصاب لماذا صنع كانط هذه الفلسفة دون تلك، او لماذا صنع هيغل فلسفة غيرها. ولكن كما ان الصعيد البيولوجي لا يمكن اختزاله حقا الى الصعيد الفيزيائي، فكذلك لا يمكن اختزال (او ارجاع) الصعيد النفسي الى الظواهر البيولوجية (او العضوية). كما ولا يمكن ارجاع الصعيد الاجتماعي الى الظواهر النفسية.

* اذن، في رأيك ان الامراض العقلية ليست من اصل بيولوجي، او عضوي فيزيولوجي؟.

** بعضها ينطبق عليه ذلك من مثل هذيان الشيزوخرف. فنحن نعلم انه عائد الى انحلال خلوي يصيب الجهاز العصبي. ولكن الاغلبية العظمى من الامراض العقلية ليست من اصل بيولوجي، والدليل على ذلك ان الادوية العلاجية النفسية التي تستخدم منذ عدة عقود من السنين لا تفعل الا ان تحجب اعراض المرض، انها لا تشفيه.

٧ العالم العربي وطريق التقدم

* انت من اصل اغريقي، وبالتالي فانك جارنا جغرافيا وحضاريا. هذا يعني انك تعرف العالم العربي - الاسلامي اكثر مما يعرفه مفكر فرنسي عادي او غير مختص به. سؤالي هو التالي: كيف ترى الى تطور العالم العربي وموقفه تجاه الغرب والحداثة الغربية؟ هل هو ضحية خصوصيته كما يقول البعض؟ ام ان الامر يتعلق بمجرد تأخر تاريخي يمكن رده مع الزمن؟.

** سؤالك شاسع واسع، ولا يمكن الجواب عليه بشكل مبسط. هناك نقطة اولى: قبل ان نتحدث عن التفاوت مع الغرب ينبغي ان نتساءل: لماذا وكيف حصل هذا التفاوت؟ الكل يعلم انه خلال فترة كاملة تمتد بعد توسع الاسلام بقليل، وتنتهي بالقرن الثاني عشر الميلادي، ان «التفاوت» كان بالاتجاه المعاكس. فقد كانت الحضارة العربية اكثر تقدما، ربما ليس بالقياس الى بيزنطة، ولكن حتما بالقياس الى الغرب المسيحي. فقد ترجم العرب الفلاسفة والرياضيين والفلكيين الاغريق، كما انتجوا فلاسفة مهمين كابن رشد، وكذلك علماء رياضيات وفلك واطباء، الخ ... وكانت الحضارة العربية - الاسلامية في تلك الفترة ذات حيوية كبيرة. ولكن هذه الحركة الكبيرة توقفت عمليا بعد القرن الثاني عشر الميلادي. لماذا؟ ان السبب لا يعود بالتأكيد للاستعمار الاوروبي، لانه لم يبتدىء الا بعد ستة قرون من ذلك التاريخ (ابتدأ في الجزائر عام ١٨٣٠، وفي مصر حوالي العام ١٨٦٠، الخ ..). ولكن هذا الازدهار الحضاري ابتدأ يتوقف بدءا من القرن الثاني عشر، وراح الركود يهيمن ، وفي افضل الاحوال ساد التكرار والاجترار. والآن ماذا يحصل؟ اخشى ان ازعجك اذا قلت الحقيقة ... فأنا اعتقد ان الشيء الاساسي هو ان البلدان العربية الاسلامية لم تستطع ان تتوصل الى الفصل بين المجتمع السياسي والدين. وليس من السهل ان نفهم لماذا، ولكن يمكن ان نضيء المسألة اذا ما نظرنا الى التدريج، واستخلصنا دروسه وعبره.

انت من اصل اسلامي، وانا من اصل مسيحي. ولكن قبل الاسلام والمسيحية كانت هناك اليهودية. والعبريون هم الذين اخترعوا الدلالة الخيالية للإله الواحد الكلّي العلم والمهيمن الجبار، الخ ...

* قبلهم كان الفرْق (او تعددية الآلهة) هو المهيمن.

** نعم. واذا ما قرأنا العهد القديم وجدنا فيه ليس فقط فكرة الديانة التوحيدية، وانما ايضا القانون او الشريعة. نحن نعلم ان الدين الاسلامي يسمح بالعودة الى التوراة وانبياء اسرائيل. اذن فلنقرأ التوراة. واذا ما قرأها المسلم وجد ان فيها شريعة. والقانون العبري المعطى من قبل الله يتضمن وصفا تفصيليا دقيقا لما ينبغي فعله او عدم فعله. انه يتحدث مثلا عن المسائل التالية: كم هو عدد الشهود الذي ينبغي توافره لادانة شخص ما؟ ما الذي ينبغي فعله تجاه رجل وامرأة ارتكبا الزنا؟ ما الذي ينبغي فعله اذا ما دخل عجلي في ارضك وخرّب محصولك؟ حول كل هذه الاشياء وكثير غيرها كان الله قد املى القوانين على موسى. وهكذا نجد ان القانون الديني العبري هو في آن معا قانون عقوبات وقانون مدني - اي شريعة.

ثم جاء بعدهم المسيحيون. المسيح يقول: «اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله». لا تبالوا بما يحصل في هذا العالم (ملكتي ليست من هذا العالم). اهجروا آباءكم ونساءكم واطفالكم واتبعوني اذا ما اردتم النجاة في الآخرة. وكان كل ذلك يبدو متماسكا بالنسبة للمسيحيين الاوائل، لأنه كان يتوافق مع الاعتقاد الراسخ بان المنقذ، اي يسوع المسيح، سوف يعود قريبا، واذا ما قرأنا رسائل القديس بولس، او سفر الرؤيا (كتاب الاخرويات) المنسوب خطأ للقديس يوحنا، نجد ذلك بكل صراحة ووضوح. ولكن الايام والسنوات والقرون مرت وما عاد المسيح. وفي اثناء ذلك كانت المسيحية قد نجحت في ان تصبح دينا رسميا، مؤسساتيا. وبدءا من تلك اللحظة اصبح الميل الملازم لكل دين توحيدي، اي الميل للتيوقراطية وانصهار السلطة المدنية بالدينية، شيئا واضحا جليا. وهذا ما نلحظه بشكل واضح في بلدان الشرق المسيحية - اي في البلدان الارثوذكسية. فبيزنطة كانت

Digitized by Birzeit University Library

تيوقراطية، او قيصرية - بابوية بحسب التعبير المخترع فيما بعد في الغرب. ولكن مع هذا الفارق: ليس البابا هو القيصر (او الامبراطور)، وانما الامبراطور هو الذي يصنع والبابوات ويخلعهم كما يشاء. المقصود بالبابوات هنا بطاركة القسطنطينية. (خلفاؤكم لم يكونوا يعانون من هذا التعقيد الاضافي لانهم كانوا بكل بساطة واعراء المؤمنين»).

وفي بلد ارثوذكسي آخر كبير كروسيا كان القيصر يحذف البطريركية كليا ويقيم مكانها مجمعا مقدسا يتصرف به كما يشاء، عندما كان يحس بان البطريرك يريد ان يخرج عن طاعته. وفي رأيي ان ميراث هذه الحالة هو الذي يفسر لنا سبب التأخر التاريخي لروسيا وبلدان البلقان الارثوذكسية الاخرى (بما فيها اليونان).

* تقصد التأخر التاريخي بالقياس الى الغرب؟.

** نعم. ولكن ماذا حصل في الغرب وأدى الى انطلاقته وتقدمه؟ منذ وقت مبكر جدا حاول البابوات ايضا، وفي مرات عديدة، ان يفرضوا انفسهم على السلطة الزمنية (المدنية). بل وصل بهم الأمر الى حد اختلاق وثيقة مزورة مدعوة بـ «هبة قسطنطين» تولي للبابوات حق السلطة الزمنية على ايطاليا. (ولم يكتشف تزوير هذه الوثيقة الا في القرن الخامس عشر، وذلك من قبل عالم من علماء النهضة). ولكن محاولاتهم باءت بالفشل لعدة اسباب. فقد كانت هناك من جهة البورجوازية البلدية، اي بورجوازية البلديات في المدن الكبرى، وقد ابتدأت منذ القرن العاشر او الحادي عشر تطالب باستقلاليتها الذاتية، بل نجحت احيانا في تحقيق حكمها الذاتي. وكانت هناك من جهة اخرى السلالات الملكية القومية المختلفة التي اخذت تناضل ضد السلطة الزمنية للبابوات والكنيسة، ومن اجل تشكيل الدول القومية. ثم حصلت فيما بعد عملية اكتشاف، او اعادة اكتشاف القانون الروماني، ثم الفكر الاغريقي، ثم عصر النهضة، ثم الاصلاح الديني، وكان هذا الاصلاح انجازا ضخما لانه قضى نهائيا على كل ادعاء للكنيسة بأحقية امتلاك السلطة الزمنية في البلدان التي انتصر فيها.

* الان كان لوثر يشكل لحظة كبرى في تاريخ البشرية الغربية؟.

** بالتأكيد. ولكن لا ينبغي التوهم. فالعملية كانت شاقة وعسيرة، والنضال ضد السلطة الزمنية للكنيسة ومزعم الايديولوجيا الدينية في التشريع لحياة المجتمع والروح قد دام عمليا عشرة قرون. وقد كانت الكنيسة حتى عشية الثورة الفرنسية تمارس، هنا في باريس، رقابة على الكتب التي ينبغي اولا ينبغي ان تنشر. لهذا السبب فان جزءا كبيرا من كتب فلاسفة التنوير قد نشرت في هولندا.

نستنتج من ذلك ما يلي: اذا كان قد حصل في الغرب فصل بين العاملين الديني والسياسي، فان ذلك ليس عائدا الى ان المسيحية المؤسساتية تحبذ ذلك اكثر من غيرها من الاديان، وانما لأن البشر قد ناضلوا طيلة قرون وقرون من اجل تحقيق ذلك الفصل. وقد كلّف ذلك جبالا من الجثث وانهارا من الدم. وقد كانت محاكم التفتيش تحرق الناس الذين تعتقد انهم يشككون بالعقائد. وكان الملوك والاباطرة يضطهدون «الزنادقة»، وحتى عندما اصبحت الكنيسة محرومة من كل سلطة زمنية فان تأثيرها الحقيقي ظل ضخما. وكما تعلم فان الفصل الحقيقي بين الكنيسة والدولة في فرنسا لم يتحقق الا في مطلع هذا القرن (حوالي ١٩٠٠). وفي انكلترا، اول بلد ليبرالي في اوروبا «ام البرلمانات» لاتزال الملكة رئيسة للكنيسة الانغليكانية، ولايزال القانون متأثرا بالاوامر الدينية.

* الان انت تعتقد بان المفتاح الذي يفسر تقدم الغرب هو علمنة المجتمع السياسي؟.

** الشيء الذي يفسر ما تدعوه «بتقدم» الغرب (وانا الا احب هذه الكلمة كثيرا) هو ان الغربيين قد انخرطوا منذ قرون عديدة في حركة تحريرية، حركة استقلال ذاتي، سواء أعلى الصعيد السياسي ام على صعيد الفكر. وقد اخذوا بالتدريج يرفضون بأن تقول لهم هيئة اخرى (سواء أكانت الكنيسة، ام الوحي، ام الكتاب المقدس) ما الذي ينبغي ان يفكروه، وما الذي ينبغي ان يفعلوه. وقد كانت العلمنة في آن واحد هدف هذه الحركة وشرط استمراريتها. وما دمت تعتقد بأن كل ما يمكن ان تفكر فيه متضمن بين دفتي كتاب، فانك لا تكون تفكر بالفعل.

عن مجلة الكرمل
العدد ٤٠ - ١٩٩١/٤١

أسف واعتذار

نقدم اسفنا واعتذارنا الى «اسعد عبد الرحمن لعدم تمكننا من نشر مقالته بعنوان «تقييم الانتفاضة: ضرورات وشروط ومخاطر» وذلك لاسباب خارجة عن ارادتنا.

Digitized by Birzeit University Library

قائمة بأسماء شهداء الشهر الخامس والاربعين للانتفاضة

تدخل الانتفاضة مع صدور هذا العدد، شهرها السادس والاربعين، في ظل تحركات سياسية وتحولات سريعة وعميقة في العالم. ورغم كل ذلك ما زالت الانتفاضة تحافظ على شعاراتها وأهدافها منذ اليوم الاول لاندلاعها. «دولتان للشعبين». وخلال الشهر الماضي سقط (١٨ شهيدا). وبذلك يصل عدد شهداء الانتفاضة الى (١١٠٤) شهيدا، وفيما يلي قائمة بأسماء شهداء الشهر الماضي:

الثلاثاء ١٩٩١/٧/١٠

- عبد السلام ابراهيم الرباع (٦٥ عاما) الفندقومية /جنين. اختناقا بالغاز خلال المواجهات حول منزلة

- محمد منصور زمزوم (١٧ يوما) مخيم عسكر القديم / نابلس. اختناقا بالغاز

الأثنين ١٩٩١/٨/٥

-أسامة سلامة العروقي (١٧ عاما) مخيم الشاطىء / قطاع غزة. أصيب بعيارات نارية في الرأس والصدر

الجمعة ١٩٩١/٨/٩

- يعقوب محمد المشلح (١٧ عاما) مخيم الشاطىء / غزة. متأثرا بجراحة التي أصيب بها يوم ٨/٥، حيث استشهد في حينه أسامة وأصيب ١٧ مواطنا خلال الصدامات التي شهدها المخيم.

السبت ١٩٩١/٨/١٠

- غازي فريد كامل ياسين(٢١ عاما) نابلس. أصيب بعيار ناري في صدره.

- رائد شكري جلاد (١٦ عاما) طولكرم. أصيب بعيار ناري في ظهره.

الأحد ١٩٩١/٨/١١

- هاروت «ارتين» دانييل كولوزيان (١٧ عاما) رام الله. أصيب بعيارات نارية خلال المواجهات.

الأثنين ١٩٩١/٨/١٢

- سامي اسماعيل خليل دبابسة (٤٠ عاما) البادان / نابلس. أصيب في حادث دعس وصفة شهود العيان وزملاؤه العمالي بأنه متعمد وأن السائق حاول دعس خمسة عمال في كفار سابا. نجى منهم أربعة وقد اعتبره اهل القرية شهيدا. وقد وصفت المصادر الاسرائيلية الرسمية الحادث بأنه «حادث دعس عادي».

الأربعاء ١٩٩١/٨/١٤

- رأفت ابراهيم الفسيس(١٧ عاما) مخيم الشاطىء / قطاع غزة. متأثرا بجراحه التي أصيب بها يوم ٨/٥، حيث أصيب بعيار ناري في رأسه.

الجمعة ١٩٩١/٨/١٦

- خيري بركات النتشة (١٢ عاما) الخليل. جراء انفجار قنبلة في المحددة الخاصة بوالده. مصادر المدينة قالت أن القنبلة القيت داخل المحددة.

الأحد ١٩٩١/٨/١٨

- محمود نايف مصطفى ابو عرة (٤٧ عاما) عقابا/ نابلس. أصيب بعيار ناري عندما كان سائرا في القرية، حيث لم تكن هناك أي أحداث أو مواجهات في القرية.

- محمود عمر زكارنة (٣٠ عاما) قباطية/ جنين. كان يقف على شرفة منزله، حيث أصابته رصاصة اخترقت الجهة اليسرى من صدره.

الاربعاء ١٩٩١/٨/٢٨

- خالد عبد الرحمن عوفة (٣٧ عاما) مخيم طولكرم. أصيب بعيارات نارية أثناء مهاجمته جنودا اسرائيليين بالحجارة.

السبت ١٩٩١/٨/٣١

- معزوز عوده سليمان بلاونة (٢٣ عاما)
- فيصل ابراهيم حبانين بلاونة (٢٤ عاما)
- نعيم علي محمد بلاونة (١٨ عاما)
- خالد خليل (٢٣ عاما)

جراء انفجار عبوة ناسفة في منطقة نابلس.

- فوزية حسان أبو جزر (٣١ عاما) رفح/قطاع غزة. استشهدت خلال محاولتها طعن احد الجنود.

واسرة تحرير مجلة «الكاتب» اذ تنحني اجلالا للشهداء البررة، تتقدم من شعبنا الفلسطيني واهل الشهداء بخالص العزاء.

Digitized by Birzeit University Library

الثقافة العصرية والتراث

د. وائل ابو عرفة

هل الثقافة العصرية هي نكران الماضي والتنكر للتراث؟ وهل المعاصرة تعني الانسلاخ عن الجذور حتى ندعي اننا نعيش في عصر التكنولوجيا وغزو الفضاء، دون ان يكون لنا أسس ننطلق منها نحو التقدم وامتلاك مبادىء العلم الحديث؟ وهل هذا التطور المذهل والسريع في العلم الحديث قد جاء من الفراغ، وان عمره لا يتجاوز بداية النصف الثاني من هذا القرن، وان لنا فيه نحن العرب حصة ميسورة نستطيع التباهي به امام غيرنا من الامم؟

ان ما دفعني للكتابة في هذا الموضوع، ما قاله لي بعض شبابنا المثقفين، والعائدين من الدراسة في الخارج: «بأن العرب ليسواسوى سلالة بدو رحل، جاؤوا من الصحراء واندمجوا بالحياة الحضرية بحكم الحاجة والتأقلم، ودون ان يكون لهم اي تأثير يذكر في صناعة الحضارة، وان كل ما ينسب اليهم من انجازات حضارية، ليس الا اقتباس من علوم وثقافات من سبقهم من الاغريق وغيرهم من الشعوب، وانه ليس هناك امة عربية بالمفهوم اللغوي لهذه الكلمة».!!

وقد ذكرني هذا القول بما قاله بالحرف الواحد، الشاعر المتفلسف سعيد عقل بأنه ... «عندما رجعنا الى القاموس للبحث عن اصل كلمة عرب ومن أين جاءت، وجدنا ان اصلها من الاعراب او العاربة، وهم قوم عايشوا الاغنام والابل فيما يسمى بالجزيرة العربية، نسبة لهم اي الاعراب. وقد شاءت الاقدار والظروف الطبيعية ان يستوطنوا في بلاد المشرق ويساهموا في تأخرها حتى اليوم» .!! هذا القول ليس لمستشرق مارق، او لباحث غربي حاقد، وانما لشاعر كان يعتبر من كبار المثقفين العرب، استيقظ ذات صباح ليأتي بتلك النظرية العجيبة.

وكنت قد تحدثت في مقالة سابقة، عن اهمية الثقافة العصرية، وخلق المثقف العصري، بسلوك طريقة التثقيف الذاتي وتربية النفس، من خلال مناقشة كتاب بهذا الشأن للكاتب الكبير سلامة موسى، واكدت دائما على العودة الى التراث، لانه السهل الذي لا ينضب والركيزة الاساسية نحو الحضارة والثقافة العصرية.

فهل نحن بحاجة الى اعادة النظر في طريقة تفكيرنا وبناء ثقافتنا المعاصرة؟ اعتقد اننا بحاجة لتعلم واتقان طريقة جديدة في التفكير العلمي السليم، وبأسلوب علمي محض، نعلمه لاجيالنا وناشئينا، لا ان نعودهم على الحفظ والتلقين المجرد، ليكونوا بعدها لقمة سائغة لكل ما يقال لهم، ويتسرب الى عقولهم، عن قصد او غير قصد. واعتقد اننا نحن العرب كنا السباقين في انشاء طريقة التفكير العلمي الصحيح، القائمة على التنقيح والتجربة والبرهان. فاذا كان عمر اوروبا الحديثة لا يتجاوز المئتي عام، فان عمر الحضارة العربية وتراثها العلمي الضخم، قد تجاوز الالف عام. الا انه قد توقف ولأسباب معروفة عندما بدأ عصر النهضة الاوروبية هذا.

فعندما وضع علماء الغرب اسس ما يسمى بالعلم التجريبي، ورفض كل ما هو فرضي وغير مثبت علميا، كان علماء العرب قد سبقوهم الى هذه القاعدة قبل مئات السنين: «يجب ان تعلم اننا نذكر خواص ما رأيناه فقط دون ما سمعناه او قرأناه، بعد ان امتحناه وجربناه، فما صح عندنا اوردناه، وما بطل رفضناه». والقول هنا لجابر بن حيان قبل ما يزيد عن ثمانمئة عام.

ومن المعروف في تاريخ الطب ان ابا بكر الرازي، قد رفض ومحى معظم فرضيات « غالين » في علم التشريح، والتي كانت تعتبر حتى ذلك الوقت من المقدسات، والتشكك بها ضربا من المحرمات وان احترام « غالين » ومكافأته على ابحاثه في تركيب جسم الانسان لا يعني ان نسير

Digitized by Birzeit University Library

وراء اخطائه على انها حقائق مقدسة ».

واذا كان ديكارت قد وضع الشك كقاعدة للتفكير والانطلاق نحو اليقين، حتى اصبحت اقواله مثالا يحتذى به، فمن الحقائق ان ابن الهيثم قد سبقه الى هذه القاعدة قبل مئات السنين: « ان حسن الظن بالعلماء السابقين، وعدم التشكك فيما ورثناه عنهم، غريزة من غرائز البشر، وانه يكثر ما يقود الباحث الى الضلال ».

ان وراء هذا النكران للتراث، والابتعاد عنه او عدم المعرفة فيه، حتى من قبل بعض المثقفين والمفكرين عدة اسباب، فاطلاع هذه النخبة على تاريخ العرب وتراثهم، من خلال ما قدمه بعض المستشرقين الذين بحثوا بكل ما هو سلبي ومن وجهة نظرهم الخاصة، ودون التأكد من صحة ما جاؤوا به وتبيان حقيقته، جعل هؤلاء الناس لا يقبلون الا وجهات النظر المستشرقية هذه، والتي لا تعرف عن الدولة العباسية مثلا، سوى مجون وانحراف بعض امرائها على حد تعبيرهم. ولا يخفى على الكثيرين منا ان بعض هؤلاء المستشرقين قد زوروا في كثير من الحقائق، وطعنوا بالكثير من الانجازات الحضارية مقدمين منها سلبيات منتقاة، دون النظر الى ما قدمته هذه الحضارة من انجازات بقيت آثارها بارزة في الحضارة العالمية الى يومنا هذا، مع العلم انهم يحتفظون في متاحفهم بالكثير من المخطوطات العلمية، والتي سرقوها من مكتباتنا نظرا لاهميتها التاريخية والعلمية.

وبالاضافة الى ذلك، فقد ساهم في معركة تشويه الحضارة والتراث هذه وللاسف، بعض التيارات السياسية والفكرية في العالم العربي، وعلى ايدي مفكرين ومثقفين عرب، باعتناقهم لفلسفات وافكار معينة، واعتمادهم على الكثير من الاتهامات والدسائس الغربية دون التحقق من صوابها او بطلانها.

ولعل من الاسباب التي دفعتهم الى اتخاذ تلك المواقف، هو العداء لقضية الدين، وهي قضية من اكثر القضايا حساسية في تاريخنا المعاصر، وقد صاحب ذلك العداء المطلق خلط واضح ما بين الدين والتراث او الحضارة، وهذا الخلط الاعتباطي، ادى بهؤلاء الى محاربة كل ما له صلة بالتراث متهمين اياه بالرجعية والسلبية والتخلف.

وأرى ان هناك فرقا واضحا بين التراث والدين. صحيح أن انجازات الحضارة العربية كانت تحت راية الدولة الاسلامية، الا ان التراث بحد ذاته هو النتاج الثقافي والحضاري من علم وفن وادب وتقاليد واسلوب حياة.

وما من شك أن التراث العربي، غني بنتاجاته الحضارية التي اثرت تأثيرا بليغا في حضارة الغرب وتقدمه. واذا نظرنا للدين: فهو مجموعة الشرائع والقوانين الواردة بالكتب السماوية، والتي كان للقرآن الحظ الاوفر والاشمل بها، باعتباره آخر الكتب المنزلة، بالاضافة الى ان هناك الكثير من الاديان والمعتقدات، والتي يدين بها الملايين في هذا العالم، لا يعتمد على كتب وشرائع سماوية والبوذية والكونفوشيوسية، والتي يقدسها اصحابها أيما تقديس.

ولعل هجوم البعض على مُخلّفات وانجازات الحضارة الاسلامية، من خلال عدائهم للاسلام كدين، هو تقليد لفلاسفة ومفكري الغرب في عدائهم للكنيسة المسيحية وتسلطها في بداية عصر النهضة، مع العلم ان معظم هؤلاء لم يكن ضد المسيحية كدين وشريعة، وانما ضد تسلط الكنيسة واتخاذ رجالها من الدين ذريعة لتطبيق قوانينهم ومهاجمة معارضيهم.

وقد كان «فولتير» وهو من اشد منتقدي الكنيسة الكاثوليكية يفخر بأنه مسيحي طيب القلب، وكذلك قول «برنارد شو» «بأن رجلا بلا دين هو رجل بلا شرف»، وقد فسّر «سلامة موسى» هذا الدين بالانسانية، ودعا الى دراسته كأحد الاهتمامات الكبرى للمثقف، لأن غاية المثقف لا يمكن أن تخرج على ان يعيش العيشة الذكية بدون الدين».

وبالاضافة لكل هذا وذاك، فقد كان للازدواجية الثقافية التي ألمت بنا، تأثير واضح على سلوكنا وسلوك اجيالنا الذين يتعلمون منا، والازدواجية الثقافية تشبه الانفصام بالشخصية، او ما يسمى بالطب النفسي بالشيزوفرانيا. وازدواجية الثقافة هي التناقض الواضح بين الفكر والممارسة، حيث التناقض بين ما نفكر به وبين ما نمارسه على الطبيعة، بين ما نعلمه لاجيالنا ونطالبهم به وما نمارسه امامهم، نعلمهم اهمية التعريب في التعليم الجامعي ونعلمهم باللغات الاجنبية، نطالب بدعم الصناعة الوطنية، ونستورد كل ما نحتاج اليه في حياتنا اليومية، ندعو الى تعميق الثقافة الوطنية ونلهث وراء سلبيات ثقافة الغرب ونتأثر بها....

ولست هنا من الداعين الى العودة الى الوراء، والتغني بالماضي والتوقف عنده، فقد ذكرت في مقالة سابقة: اننا تأخرنا عن العالم عندما توقفنا عن التفكير، وابتعدنا عن التراث، لان عمق الانتماء الى التراث والاقتداء به، بغض النظر عن الانتماء الديني او الفكري، واتباع طرق التفكير السليم، والتحليل العلمي الموضوعي، هي مهمة ملحة امام المثقف، لكي يرقى بثقافته نحو المعاصرة.

ان زرع هذه الاسس في نفوس الناشئة، وتعميق حبهم للتراث، وارشادهم نحو التفكير العلمي الصحيح، وتنمية شهوتهم الثقافية، هي مهمة تقع على عاتق كل المفكرين والمثقفين الغيورين في امتنا، حتى لا نقع في متاهات تكون بها نهايتنا.

Digitized by Birzeit University Library

مصداقية حقوق الانسان في الغرب
ومدى فعالية
الرأي العام الغربي

ابن رشد

ارنست همنغواي

هادي العلوي*

الرأي العام الغربي هو الرأي العام العالمي، ففي خارج الغرب لا وجود لرأي عام، وانما تجمعات بشرية لم ترتق بعد لتشكل شعوبا يكون لها رأي عام مؤثر في سياسات الهيئة الحاكمة.

اما مبادىء حقوق الانسان فهي في صيغتها الراهنة حاجة غربية خالصة. وانما قلت في صيغتها الراهنة لان لهذه المبادىء جذور تاريخية في اليونان والصين والشرق الاوسط، لكنها لم تكتمل وتنضج في نظريات او مذاهب فلسفية الا في العصر الحديث، الذي هو عصر اوربي من حيث الاساس..

تكونت هذه المبادىء مع تكون الراي العام وتطور وعي الشعوب الاوربية بالتساوق مع نمو المجتمع البرجوازي وتجذر قيمه الاخلاقية الخاصة به. وفي هذا المجرى كان هناك خطان متوازيان، ومتصارعان، هما خط الثقافة الاوربية وخط الايديولوجيا الاوربية.

يتصل الاول، اعني خط الثقافة، بالبدايات المبكرة للبرجوازية في اوائل القرن الثالث عشر الميلادي، وقد وجد التعبير الاولي عنه في الرشدية اللاتينية التي استندت الى فلسفة ابن رشد لتأسيس نمط جديد من الفكر الحر مقاوم للكنيسة والاقطاع.

اما خط الايديولوجيا فيمتد الى عصر الاقطاع الاقدم ويستمد اصوله الاولى من الايديولوجيا الكنسية التي هي ايديولوجيا الاقطاع الاوربي في عنفوان سيطرته على المجتمعات الاوروبية. وتقوم هذه الايديولوجيا على احادية فكرية وسياسية تستبعد وجود الاخر، سواء كان هذا الاخر خصما محليا ام كيان جغرافيا منفصلا عن محيط القارة. ومن هذه الاحادية اتسمت الايديولوجيا منذ اطوارها الاولى بسمة عدوان في علاقاتها مع الخارج تاكدت في دائرة الفعل، للمرة الاولى، فيما سمي بالحروب الصليبية.

حين مارست العدوان على جبهتين: حربية استمرت مئتي سنة وكلفت اوروبا والشرق الاسلامي مئات الوف الضحايا المجانية. وفكرية استمرت حتى اليوم. والفعل الايديولوجي على هذه الجبهة هو الذي انجب الاستشراق كمنهج استعلائي - احتوائي يسعى لدراسة الشرق من وجهة نظر الايديولوجيا وليس المعرفة. وقد سبق للبروفسور ادوارد سعيد ان تابع هذه الظاهرة وحللها بعمق في كتابه الجليل "الاستشراق" وان كنت اخالفه في امور، منها عدم تفريقه بين ما هو للثقافة وما هو للايديولوجيا في علم التاريخ الغربي، وانا اعتقد ان الاستشراق هو ابن الايديولوجيا الغربية وليس الثقافة الغربية. والمستشرق كما حدده ادوارد سعيد نفسه هو في نهاية المطاف مخبر مكلف بتقديم تقارير عن الشرق وهو بالتالي لا يندرج في فئة المثقفين التي تقوم هنا بوظيفة مختلفة تماما (اوقعه هذا الخلط في اخطاء اثرت على مصداقيته، منها اداجه كارل ماركس في خانة المستشرقين وهو، اعني ماركس، فيلسوف لامؤدلج، وانتماؤه يتحدد بالاطار المعرفي للفكر العالمي).

ان التمييز بين الخطين، رغم صعوبته، يبقى ضروريا لتجنب الالتباس في المواقف

* ملخص مداخلة القيت في ندوة حلبجة الثانية المنعقدة بدمشق في ١٧ آذار ١٩٩٠

Digitized by Birzeit University Library

والمسلكيات حين يراد منا ان نجري تقييما سليما نصل منه الى تعيين الاطار الصحيح للعلاقة مع الخارج والوقوف من ثم على افضليات النضال في الساحات المختلفة للصراع مع العدو.

قلت ان الثقافة الاوروبية بدأت من الرشديين اللاتين، وهم اتباع ابن رشد، الذي ترجمت مؤلفاته الفلسفية الى اللاتينية بعد خمسين سنة من وفاته اي حوالي اواسط القرن الثالث عشر، واشعلت النار في اوراق الكنيسة من لحظة وصولها الى احرار اللاتين الذين كانوا يبحثون عن بدائل فكرية يخترقون بها الحصار الايديولوجي للاقطاع وكنيسته.

وكانت المحطة الثانية للثقافة الاوروبية هي عصر النهضة، وقد تميزت ثقافته بجوهرها الانساني الذي جعلها تسمو احيانا فوق الامم والطبقات كما تمثلت في رموز ثقافية متعالية يصعب تصنيفها على بلد او امة او قارة بعينها. ولنذكر ليوناردو دافنشي وجيو دانوبرونو كمثال. ومن رحم عصر النهضة ظهرت الفلسفة الحديثة على يد ديكارت وفرنسيس بيكون لتشع الفكر الاوروبي في مسار تطور حثيث مكنه من انجاز فتوحاته الفكرية الخالدة التي جاءت في قطيعة مع الفكر الكنسي الاقطاعي المعادي للحرية والانسان. ويتأوج هذا المسار في عصر التنوير الذي تثبتت فيه اسس جديدة للوعي الديمقراطي والانساني تميزت بشمولية المشاعر الانسانية وسموها فوق اعتبارات الدين واللون والوضع الاجتماعي. ومن اعلام هذا العصر جان جاك روسو وهو لباغ وفولتير والموسوعيين.

كارل ماركس

ولم ينقطع منحى التنوير بانتهاء القرن الثامن عشر الذي ترعرع فيه وانما تواصل واشتد في القرن اللاحق حيث ازدهرت الهيغلية اليسارية ثم الماركسية بافقها الانساني المعبر عنه بشعارها المعروف الانسان اثمن راسمال.

في هذا السياق نفسه، كانت الايديولجيا الغربية تتطور وتكتسب عناصر جديدة اضافية جاءتها من مبادىء الاقتصاد الرأسمالي القائم على استغلال الداخلي والنهب الخارجي. وقد اخذت هذه الايديولوجيا وضعا شبه نهائي في غضون القرن التاسع عشر تبلورت فيه على الاسس العامة التالية:

١- مبدأ التفاوت بين الناس في الفرص وحظوظ المعيشة حيث يجوز ويمكن لفرد واحد ان يمتلك جزائر في المحيطات بينما يضطر فرد اخر قد يكون من مواطنيه الى بيع احشائه الداخلية لكي يضمن معيشته. ووقد شاعت مؤخرا المتاجرة باعضاء الجسم البشري في الغرب وتأسست شركات متخصصة في هذه التجارة وينظر الى التفاوت هناك على انه من لوازم الحرية والديمقراطية وحقوق الانسان لان التكافؤ في الفرص والحظوظ يقترن بالاستبداد.

٢- مبدأ تفوق العرق الابيض على الملون وتفوق الاوروبي على الشرقي. وهذا المبدأ من فعل الطبيعة التي قامت على تعدد العقول وجعلت العقل الابيض اقدر من غيره على تلقي الانعكاسات من الواقع الخارجي. ويستعمل الانجليز للاشارة الى تعدد العقول البشرية اصطلاح MIND مضافا الى القوم. فيقولون مثلا English mind و French mind و Arab mind اي العقل الانجليزي والعقل الفرنسي والعقل العربي. وهذا خطأ علميا لان العقل البشري واحد ولا يتجنس وانما يقال: العقلية الانجليزية والعقلية الفرنسية والعقلية العربية وما اشبه للتمييز بين طريقة التفكير عند كل شعب... ولا يقتصر التمايز على الادمغة بل يمتد عند بعضهم الى الاجساد، وقد زعم بعض الاطباء ان الجسد الاسود لا يمكنه هضم نفس المواد الغذائية التي يستهلكها الابيض كما ان بعض الادوية تصلح للابيض ولا تصلح للاسود. وتستند هذه النظريات العنصرية الى الانثروبولوجيا العنصرية التي تقول بتعدد اصول النوع البشري.

جان بول سارتر

٣- مبدأ حق الاستيطان المفتوح للغربي. وتبعا لهذا المبدأ يعتبر كل اقليم خارج اوروبا غير مأهول قبل ان يصل اليه الاوروبيون مهما كان عدد سكانه. وعلى هذا الاساس تم استيطان الامريكيتين واستراليا وجنوب افريقيا واخيرا فلسطين. ويقترن الاستيطان عادة بالابادة الجماعية للسكان الاصليين بهدف تقليل عددهم وايجاد مساحات كافية للمستوطنين وفي بعض التطبيقات ادت الابادة المنظمة الى افناء شعب بأكمله كما حدث لشعب طسمانيا الاسترالي الذي اباده الانجليز عن بكرة ابيه. وقد اضطر الانثروبولوجيون المعنيون بدراسة الاجناس الى

Digitized by Birzeit University Library

الرجوع الى الهياكل العظمية والجماجم لدراسة الخصائص التشريحية لهذا الشعب بعد ان لم يبق منه فرد واحد يمثله.

٤- اعتبار تاريخ العالم هو تاريخ اوروبا. وهو المبدأ المسمى بـ«الاورو مركزي» او كما يستنسخه كتابنا ومترجمونا حرفيا: مركزية الذات الاوروبية. ومن هذا الاعتبار ينطلق المؤرخون الغربيون في تحويش تاريخ الحضارات العالمية لصالح التاريخ الاوروبي مستندين في ذلك الى منهج عدواني يتصرف بحقائق التاريخ بنفس الروح التي تحكم التصرف بالاقاليم الخاضعة للاستيطان. وعلم التاريخ في الغرب ينشطر الى فرعين عريضين: تاريخ اوروبا، ويتناوله المؤرخون وفق منهج علمي يتوخى الحقيقة مالم تصطدم بظروف اقليمية او طبقية تدعو الى الالتفاف عليها. والفرع الاخر هو تاريخ العالم. وهنا يشتغل المؤرخ كموظف اعلامي. وهذا الاخير هو اساس الاستشراق الذي ينهض كرسالة اعلامية خالصة تجعله يندمج في امبراطورية الاعلام الامبريالي بعيدا عن ميدان البحث الاكاديمي لعلم التاريخ المعني باوروبا. وقد نضجت مناهج البحث في التاريخ وتقدمت عما كانت عليه في السابق بفضل المادية التاريخية وتحت تاثير التطور الشامل في المعرفة الحديثة. لكن الدراسات الاستشراقية بقيت تراوح في مكانها. ومن هنا يمكننا ان نعثر بين المؤرخين الغربيين على قراءات ثقافية لامعة، بينما نجد هبوطا في التكوين الثقافي لعامة المستشرقين. وبينما ساهم المثقفون الغربيون في دفع السيرورة الاجتماعية والحضارية للغرب اقتصرت مساهمة المستشرقين على الميدان السياسي الخارجي وكان الكثير منهم موظفين في وزارات الخارجية والمستعمرات او في المؤسسات الاعلامية المترفعة عنها. ولم يسجل للاستشراق اي دور فاعل في تاريخ اوروبا الداخلي.

مقابل الايديولوجيا الغربية بالتباساتها الضد - بشرية التي عرفنا جانبا منها للتو، استوعبت الثقافة الغربية خلاصة الموروث الاوراسي في مناحيه اللصيقة بالانسان والحضارة، ثم استمرت في تطورها الحثيث نحو المواقع الريادية التي تتبوأها اليوم وتضم المساحة الواسعة للنشاط الثقافي: الفلسفة والانسانيات والاداب بتفرعاتها الكبرى. اما ملاكها فيتألف من الفلاسفة والادباء والمؤرخين وعلماء الاجتماع والنفس والاقتصاد والقانون والانثروبولوجيا. ومن خلال صراعها مع المؤسسة الحاكمة وايديولوجيتها تأتي مساهماتها الفعالة في تطور المجتمع الغربي وتحريره من معالم الهمجية التي انطبعت بها حياته في مرحلتي الاقطاع والامبريالية. والى المثقفين الغربيين يرجع الفضل في تأصيل مبادىء الحرية والمساواة والديمقراطية وحقوق الانسان وتحولها الى ثوابت ميتافيزيقية لدى الفرد الاوروبي. وبفضلهم ايضا تخلصت اوروبا وامريكا الشمالية من القمع السياسي والتعذيب، بينما تم اصلاح السجن بتدخل مباشر من علماء الاجتماع. وكانت اوضاع السجون في اوروبا مرعبة وغير انسانية على غرار سجون العالم الثالث اليوم.

لكن الايديولوجيا الغربية واصلت حضورها عن طريق الكنيسة اولا والدولة اخيرا. من الخطأ الاعتقاد ان هاتين المؤسستين ترمزان للحضارة الحديثة في مجمل نشاطهما العملي والفكري. انهما بالعكس تقفان وراء المنحى اللاانساني الذي لا زال له فعل مؤثر في حياة الغربيين ان الدولة الغربية الحاضرة هي امتداد للدولة القروسيطية والاقطاعية ولا مجال هنا للظن بان حكاما من طراز ريغان وتاتشر وميتران وبوش يختلفون جوهريا عن لويس السادس عشر او هنري الثامن، فالاصل واحد والايديولوجيا واحدة. وانما الذي تغير هو ان هؤلاء لم يعودوا يتمتعون بسلطات مطلقة تسمح للجنوح الهمجي ان ينفلت من عقاله. ومع انهم ياتون عن طريق اللعبة الانتخابية فان التقاليد الديمقراطية والقيم الانسانية التي اصلها المثقفون في مجتمعاتهم تقف حاجزا دون هذا الجنوح. قد قامت مارغريت تاتشر باربع محاولات لاعادة عقوبة الاعدام الى بريطانيا بدافع من نزوعها الفاشي الضد - بشري الا ان جميع محاولاتها باءت بالفشل وصوت ضدها حتى اعضاء حزبها في مجلس العموم.

وتبقى الحرب سجالا بين الثقافة والايديولوجيا في الغرب، الثقافة بوصفها يوتوبيا والايديولوجيا كسلمات رسمية. وهذه الاخيرة تمسك بالسلطة وتنفذ عن طريقها مبادئها ضمن الفسحة المتاحة لها في حلبة الصراع. ان امتلاك فرد واحد لعدة جزر في المحيطات واشطار آخر لبيع احدى كليتيه او عينيه الى زبون من بلدان النفط لانه لا يملك وسيلة اخرى للبقاء حيا هو مؤشر على قوة الايديولوجيا ومتانة موقعها في المجتمع والدولة. وبينما تسعى الثقافة لالغاء البغاء وصيانة جسد المرأة عن التاجير، تنظر الايديولوجيا الغربية الى هذه العامة الاجتماعية الكبرى كظاهرة حضارية: عرضت مرة على القضاء البريطاني قضية اختلاس المتهم فيها موظف حسابات في مؤسسة. وقد اقر الموظف بالاختلاس وقال انه لم ياخذ الاموال المختلسة لنفسه وانما قدمها لمومس كان يعاشرها. وقد بلغت هذه الاموال اربعمئة الف باون استرليني. ولما استجوبت المومس اقرت

Digitized by Birzeit University Library

ناصر علي السعيد

ادوارد سعيد

باستلامها المبالغ من المتهم وقالت انها اكتسبتها بحكم المهنة. ولما كان البغاء مباحا في بريطانيا فان ما تكسبه المومس من عملها هو حق خالص لها. ولم تجد المحكمة في القوانين السائدة ما يتعارض مع هذا الدفع فاغلقت القضية فيما يخص المومس وواصلت النظر فيما يخص الموظف ويبين هذا المثال تسيد الايديولوجيا المؤيدة للبغاء على الثقافة المعارضة له.

وتتوزع الثقافة والايديولوجيا السيطرة على الرأي العام. ان المثقفين الغربيين يخوضون النضال ضد الاسلحة النووية ويحاولون اشراك اوسع ما يمكنهم من الجماهير في هذا النضال الحيوي. لكن المشاركة الجماهيرية بقيت محدودة ولم ترتق لتشكل عنصر ضغط كافي على صناع القرار في هذه المسألة الخطيرة التي تمس مستقبل المدينة الغربية في المقام الاول. ان المره ليتوقع ازاء مسألة كهذه ان تخرج المظاهرات بالملايين في كل مكان من اوروبا وامريكا الشمالية للمطالبة بتحريم السلاح النووي والتوقف عن اجراء التجارب النووية. وهذا مالم يحدث قط. وقد اقتصرت التحركات في هذه الساحة على الفئات الارقى وعيا واخذت بذلك شكل النشاط النخبوي بل ان الاية لتنقلب في الدول الامبريالية حيث يتجه الناخبون الى التصويت للمرشحين الاشد تمسكا بالنهج العدواني والاكثر تشددا في مسائل نزع السلاح. ولا شك ان انتخاب مارغريت تاتشر لثلاث دورات متتالية هو من نتائج هذا الوضع الغريب، وهو ايضا ما املى على حزب العمال ان يعيد تقييم سياسته بشأن التسلح للقبول باستمرار التجارب النووية والكف عن دعوته الى التخلص من مخزون السلاح النووي. وقد لاحظ المراقبون السياسيون ان سياسة حزب العمال الجديدة ستجلب له المزيد من الاصوات. وفي الولايات المتحدة تزداد شعبية الرئيس بقدر ما يرتكب من عدوان خارجي بشرط ان لا يسبب العدوان خسائر بشرية جسيمة للامريكان انفسهم.

يمكن القول هنا ان الاتجاه الاقوى في الرأي العام الغربي هو اتجاه رجعي لا انساني. ويتفاقم هذا الاتجاه في القضايا الاممية. وقد لاحظت من متابعتي الشخصية لاوضاع الصحافة في بريطانيا ان الصحف الاكثر شعبية في ذلك البلد الكبير هي الصحف الاكثر عداء لحركات التحرر والاقل اهتماما بقضايا حقوق الانسان في العالم.

لقد تمكن المثقفون من احداث تغييرات هامة في بنية مجتمعاتهم لصالح العدالة والديمقراطية بالتكامل مع الحركات الاجتماعية العاصفة التي شهدها العالم الغربي الحديث. يقول الشاعر السويدي غولبرغ في هذا الصدد: ان للشاعر مكانة في جيش الرب السري وانه مكلف بحماية الضعفاء والنضال ضد الجشع وغريزة التدمير. والشاعر الذي يقوم بهذا النضال بكافا من حين لاخر بظهور المسيح له في زوبعة الشوارع والساحات. وكان هذا في الحقيقة خيار مشترك لمعظم مثقفي الغرب الذين خاضوا نضال مزدوج: ضد الكنيسة باتجاهاتها المعادية للعدل والديمقراطية، ومع المسيح بافكاره المشاعية الحية التي يحسها المثقف المتنور بطريقة افضل مما يفعل رجل الدين. وقد يفسر لنا ذلك كيف انتكست راية الرب زمانا طويلا وارتفعت بدلا منها راية الكنيسة والدولة حتى جاء الوعي الحديث والفكر التنويري فحملها المثقفون ليقاتلوا بها ضد الطغيان والجشع وقد افلحت الخدمة في جيش الرب السري في تبصير الناس بحقوقهم بل وفي قيادتهم احيانا لانتزاع هذه الحقوق لكنها لم تفلح في ايجاد وعي امعي يجعل الرأي العام يتحرك لمناصرة قضايا الشعوب بنفس الحماس. وكما لاحظنا للتو فالاتجاه الرجعي اللاانساني هو الغالب على الرأي العام الغربي لاسيما في الدول الامبريالية الكبرى، واحكي هذه التجربة الشخصية: ذهبت الى لندن على اثر اختطاف المناضل الكبير ناصر السعيد في بيروت وقصدت هناك مجلس العموم حيث التقيت بنائب من اليسار العمالي يشتغل في قضايا حقوق الانسان والحريات. وحدثته بما جري لناصر على يد المخابرات السعودية وعملائها في لبنان. فحرر النائب مذكرة الى الحكومة السعودية يطالب فيها بالكشف عن مصير المناضل المخطوف، ودور المذكرة على زملائه النواب لتوقيعها لكنه لم يحصل على اكثر من سبعة عشر توقيع من مجموع ما يزيد على خمسمئة عضو في مجلس العموم.

ان هؤلاء النواب الذين صوتوا ضد اعادة عقوبة الاعدام الى بريطانيا لم يكن يعنيهم ان

Digitized by Birzeit University Library

يخطف رجل يكافح ضد نظام حكم من القرون الوسطى ويذهب ضحية تعذيب همجي على يد جلادي هذا النظام البشع، ما دام هذا الرجل لا يتمتع بالجنسية البريطانية.

المؤسسة الحاكمة في بلدان الغرب هي كما قلت بنت الايديولوجيا وليس الثقافة. فالمثقفون لا يحكمون في تلك البلدان. واقصى ما يمكن ان تمل فيه مساهمة المثقف في السلطة ان يكون وزيرا وهذه بحد ذاتها من الحالات النادرة كما انها تقتضي مساومة متقابلة من الطرفين. الدولة والمثقف وذلك بان ترضى الدولة بضم احد المثقفين اليها، وان يرضى المثقف بالمنصب المعروض عليه لقاء شروط مفترضة من كل منهما: الدولة تفترض ان المثقف لن يخرج في مزاولته لصلاحيات المنصب عن البنية العامة للنظام، والمثقف يفترض انه سيحصل على فرص للتحرك تمكنه من تحقيق بعض الاهداف الحيوية بالنسبة له. ولدينا مثال طري على هذه المساومة وهو اسيتزار ديفول للكاتب الكبير اندريه مالرو. وكان مالرو كاتب يساري وليس بينه وبين ديفول اي نقطة التقاء سوى نضالهما ضد الاحتلال النازي في الحرب العالمية الثانية وهي مسألة كانت قد انتهت عندما استوزر مالرو. وقد قبل مالرو بالعرض وصار وزيرا للثقافة. وفي نهاية وزارته صرح انه بهذه المساومة استطاع الاسهام في تحرير تسع مستعمرات فرنسية، بينما لم يستطع ان يفعل شيئا طيلة السنوات التي امضاها في المعارضة.. ومهما يكن فهذه كما قلنا من الحالات النادرة. والمؤسسة الحاكمة في الغرب ابعد ما تكون عن حكم الفلاسفة وهي بطبيعة تركيبها الايديولوجي لا تتسع لمثقف متنور بقدر ما تتسع لبلطجي من طراز تاتشر او ريغان او بوش او ميتران.

ويمكننا ان نسأل: هل الدولة البريطانية التي وضعت تاتشر على راسها كانت مستعدة لترئيس أ.ج. ويلز او برناردشو؟ او الدولة الفرنسية كانت ستقبل برئاسة جان بول سارتر؟ او ان الشعب الامريكي كان مستعدا لانتخاب همنغواي رئيسا للولايات المتحدة؟

ان استيعاب هذا الواقع يكتسب اهمية مخصوصة في هذه الظروف حيث تتجه حساباتنا الى القانون الدولي والمنظمات الدولية ولجان حقوق الانسان والرأي العام الدولي بوصفها التوجهات الاوفر حظا للنضال. ثمة تعويل زائد عن المطلوب يصل الى حضيض السلبية المطلقة يدفع بقيادات حركة التحرر في منطقتنا خارج الساحة الفعلية للنضال الى زوايا وهوامش يفترض ان يلجأ اليها المناضل في ساعات الراحة. وهذه الزوايا لا تنتج شيئا الا اذا استندت الى المتحقق في الساحة الا راس وهي الساحة الداخلية.

عندما شن الفيلسوف الانساني الكبير برتراندرسل حملته العالمية ضد العدوان الامريكي على فيتنام كان يدرك ان هذه الحملة ليست هي التي سترغم الامريكان على ايقاف عدوانهم. وهو لذلك لم يقرن حملته السلمية بدعوة الفيتناميين الى القاء السلاح واتاحة الفرصة للمفاوضات والحلول السلمية وانما ايد نضالهم المسلح بدون تحفظ بل ودعامم الى تصعيده وقال ان من حق الفيتناميين قصف مدينة نيويورك اذا استطاعوا، وهو لا يجهل ان نيويورك فيها مقر الامم المتحدة! وكفيلسوف يعتمد على المنطق الرياضي لم تكن تعوزه الدقة في التوصيف والحكم، كان يعرف ان رعاة البقر لا يردعهم شيء كما تردعهم كثرة الجنائز وانما اذا اوقفوا عدوانهم فانما يفعلون ذلك استسلاما لخط الرعب وليس ايثارا للسلم او اخلاقا الى الموادعة.

على الضد من هذا التوجه السليم والمنطقي، تسود اليوم قناعة راسخة لدى قيادات حركة التحرر في منطقتنا وبين اصدقائها وانصارها الدوليين وهي اننا نقترب من تحقيق اهدافنا بقدر ما نبتعد عن ساحة النضال الفعلي لنقدم المزيد من الادلة على صدق ثوايانا.

ان المتعاطفين مع ضحايانا في الغرب يريدون ثمن عطفهم وهو القاء السلاح لان حمل السلاح تبعا للايديولوجيا الغربية هو من حق الحاكم وحده سواء كان حاكما محليا ام محتلا اجنبيا، وبالطبع عندما يكون الحاكم او المحتل على صلة بالمصالح العليا للامبريالية فانه يكتسب حق اضافي في استخدام العنف المسلح ضد المحكومين.

ليس غرضي هنا الاستخفاف بمبادرات هيئات حقوق الانسان والمنظمات الدولية المعنية بقضايا السلم او جهود الشخصيات الديمقراطية المناصرة لحركات التحرر، لكني ادعو الى وضعها في المكان المناسب من افضليات النضال ضد العوان الامبريالي والمحلي وان لا نقبل باي ثمن تطلبه للتعاطف معنا، وانا لذلك اشعر اننا في حاجة الى اصدقاء من طراز برتراند رسل لامن طراز منظمة العفو الدولية او الامم المتحدة، لان امثال هؤلاء الاصدقاء يكونون اكثر ادراكا لحركة التاريخ واكثر انصافا للضحايا ولان العلاقة معهم تتحقق بالتكامل مع خط النضال الداخلي بخياراته المجربة ولا تنفرض علينا كبديل جامع مانع لكل الساحات والخيارات.

عن مجلة «الهدف»
١٩٩٠/٦/١٠ العدد ١٠٠٩

Digitized by Birzeit University Library

سليمان منصور
و
صيغ التشكيل

ابراهيم المزين

- ("الحقيقة") هي الميدان الاكبر للبحاثة وأحد المغريات التي يظل الانسان الباحث، الفنان، الفيلسوف... الخ، يطاردها، يمسك طرف الخيط حينا، ويتخبط احيانا، وتظل (الحقيقة) هي اللعبة التي لا تنتهي، و"الحقيقة" هنا ليست ذلك المصطلح الذي يتخذ صفة شمول الاشياء بقدر ما هي نقطة ضوء في اطار الخصوصية، وتكون الحقيقة في الناس، والحقيقة في الجمال، وفي الخير والشر، وتكون اخيرا في الحياة، ولا تكون في الفن، وتاخذ صفة النسبية حسب مفهومها عند أحد ما، وعند أخر تأخذ صفة المطلق (وبقدرة قادر) تتحرك، وتسكن كما تشاء، وحسب أي ارضية تنطلق منها.

- والفن هنا قد يكون وسيلة للوصول (للحقيقة)، وأبدا لن يصلها على اعتبار انها السؤال الاكبر في الحياة، وبالاجابة عليه تتجمد الحياة وتقف. وبذلك تكون ذلك اللغز الذي لا يحل، ولا تفك رموزه ويلوح (الفيلسوف) بوجهه لكل هذه الدلالات وينطلق لاشا وراءها، وتكبر الاسئلة وتتشعب، وتكثر، وينطلق وراءه آخر، ومن زاوية اخرى، أو من جزئية في فكرة يبني عليها فلسفة جديدة، وهكذا دواليك.

- منذ ان وطئت قدم الانسان الارض، والى يومنا هذا والفنان فيلسوف ينطلق من ذاته يرصد عالمه (الداخلي والخارجي) يبحث في الفن عندما يأخذ الكمال في الفن صفة الحقيقة، ولا يصل، ولن يصل حيث ان الفن دائما بحاجة لمن يخترعه وذلك كما يقول: (بابلو بيكاسو) وتمر علينا تجارب بني البشر نستفيد ونتعلم منها قليلا او كثيرا، تعجبنا فكرة، فننطلق منها نبني عليها تارة، ونعممها تارة اخرى، ولا ننسى الذين يعيشون بين ظهرانينا وممن يشتغلون على تلك الفكرة.

- هذا كله اندفع الى رأسي بقوة، ومرة واحدة، عند النظر الى اعمال الفنان سليمان منصور وبهذه الكيفية جرى التفكير في جمجمتي:

رأيت في (الفعل الفني) عند سليمان صفة البحث، وكأنه ينطلق وبدافع جنون وتوتر الفنان الى نقطة ما من نقطة ما، وبعد، وكأنه يقول:

ليس هنا يكمن ما اريد، وتشغله فكرة اخرى او جزئية في فكرة الى فكرة اخرى ليحضرني قول الشاعر بيتس:

(لقد ترك مايكل انجلو برهانا على سقف حيث يستطيع آدم وهو نصف يقظان ان يقلق السيدة التي تذرع الكرة الارضية حتى تضطرم أحشاؤها.

برهانا على أن هنالك هدفا.

للذهن الذي يعمل بصورة خفية:

الكمال الملحد للجنس البشري).

- هكذا اذا توقفت أمام عدد لا بأس به من الاعمال تنوعت في الخامات والمواضيع والاشكال، ولرصد هواجس وعالم هذا الفنان لا بد لنا من تتبع آثاره الفنية منذ أن بدأ

Digitized by Birzeit University Library

التصوير، والى يومنا هذا، من حيث بنية العمل الفني عنده، الى شخوصه، الى الوانه ورموزه وواقعة فردانيته وفلسفتها...الخ. وذلك راجع للمشاركة من جانبنا في العمل الفني.

بنية العمل الفني عند سليمان منصور:

يعتمد الفنان في بنائه لعمله الفني على (نموذج) يكثف فيه تجربته الفنية والشعورية ويلخص فيه موضوع العمل (والنموذج) هنا من ناحية يكون البطل في العمل ومركز السيادة الذي تصطدم به العين فور وقوعها على العمل وذلك يدخل في اطار (الصنعة)، ومن ناحية اخرى يكون بمثابة دلالة او اشارة تحمل قضية معينة، وتلخص مرة اخرى ربما مجتمع او حكاية... الخ. كذلك بساطة التكوين والشخوص تأخذ مساحات تصويرية في اغلبها تأخذ صفة المنحنيات وشبه الدائرة والدائرة وذلك يساعد في الانسيابية التي يريدها الفنان وتحقق راحة للعين في ملاحقة انحناءات وانبعاث تلك الاجسام.

الشخوص عند سليمان منصور:

- على الرغم من تعامل الفنان مع الكثير من الاساليب والمدارس الفنية الا انه يمكننا التعرف على شخوصه وملاحظة ما يميزها سواء من حيث القدرة التصويرية العالية او من حيث شكل تلك الشخوص وحركتها.

* في الغالب تكون شخوص سليمان عبارة عن نماذج كما ذكرنا سلفا وأوضح هنا لأقول: أن لهذه (النماذج) حركاتها التعويضية ولمستها المعقدة وتسرب في انفعالاتها قلما تمارسها أجسادنا وتكون أقرب للصور الذهنية والتي اراد لها الفنان أن تأخذ شكلا ماديا على مربع اللوحة وذلك ما يجعلنا لا نشك ولو للحظة أننا أمام نموذج وحالة اختصار لقضية (يحملها شخص).

* نلاحظ في شخوص سليمان أنه وعلى الرغم من الضخامة في اطار تحوير تلك الشخوص وعلى الرغم من كثافة الايحاء (باللحم والدم) في شخوصه (انه هنا تحديدا) اقرب الى (الرومانتيكيين) حيث انه يتجاهل بنية العضلات في الاجسام التي يفترض المتلقى وجوبها وذلك راجع في انه يريد التوكيد على أننا مرة اخرى أمام نماذج (لا أشخاص).

* الاضاءة الموزعة على وجوه وأجسام تلك الشخوص ليست حزمة من الاشعة لتسقط على تلك الشخوص، بقدر ما هي حجم او جسم يصدم العين وذلك يخرجنا من اطار المدامعة البصرية، ويزيد عندنا فترة التأمل في إطار الزمن الفني، وتجعلنا مشاركين حقيقيين في العمل الفني وهنا صلة وثيقة تجعل الفعل والانفعال او العمل والمعاناة من صميم تفاعل الذات مع الموضوع والمادة بالصورة.

* في الكثير من أعمال الفنان نلاحظ ان هناك (كم) من الشخوص المساعدة، والتي تخدم على هذه (النماذج) وتحدد حسب حركتها ودلالتها موضوع العمل وتقلل في نفس الوقت من تأويل العمل الى غير ما يريد الفنان، وتكون هذه الشخوص فاعلة ونشيطة ويكون النموذج من هذه الفاعلية لتلك الشخوص ساكنا يأخذ طابع (الشاهد) على العمل.

* ان التركيز في الحركة لتلك الشخوص مبعثه الايدي في أغلب أعمال الفنان، أيد تحصد وتقطف وأياد تلوح (بعلامة نصر) وأخرى ترفع وردة...الخ. وعلى اختلاف المواضيع، مرة تحرضنا، مرة تستفزنا، وهي نفسها تحذرنا، وتحمينا، ولا يحتاج المتلقى الى جهد كي تصله كل هذه الدلالات والاحساسات.

Digitized by Birzeit University Library

اج نميرا...الخ) في اطار البحث لم يشتت، بل استطاع ان يزوج تلك القيم اللونية لفرادانتيه، وبذلك نجد انه من الصعب علينا التفريق بين كل هذه الانواع من الالوان، ونشعر كأن جميع اعماله رسمت بنوع لون واحد. الا في ملمس تلك الالوان ومدى تماسكها، فهو لم يفقدها خاصيتها العضوية ولم تفقده هي خصوصية التشكيل عنده.

ان التلوين عند سليمان في هذه المرحلة يأخذ ويراعي القيم الجمالية عنده وفي الناس، ويحقق الى حد كبير المتعة عند المتلقي اثناء مشاهدة اعماله وهذا ساعده الى حد كبير في مدى انتشار اعماله.

سليمان والمرحلة الجديدة

ونصل الى مرحلة فنية اخرى من حياة هذا الفنان، فهل كانت المرحلة السابقة واضحة المعالم؟ وهل استنزفت طاقات ذلك الفنان؟ هل أضناه البحث فيها حتى ينقلب هذا المنقلب ودفعة واحدة؟ أم ماذا؟!! ففي اطار فلسفة الفن لا تنتهي الاسئلة على اعتبار ان الفن قضية غير محسومة، وهل نصيب ان قلنا بأن المرحلة السابقة كانت محكومة بظروف موضوعية حالها حال مجمل الثقافة الفلسطينية، ولكن هل هناك ظروف موضوعية تحكم الفنان ومنذا الذي ضغط ساعة التوقيت لينطلق سباق التحول!!!! يقول الفنان:

(منذ عدة سنوات وأنا ابحث كغيري من الفنانين في الارض المحتلة عن اسلوب فني محلي ومميز، وقد تنقلت في بحثي هذا من مدرسة فنية الى اخرى مستعملا المواد الخام المعروفة المتواجدة في الاسواق، ولكنني لم استطع ان اصل الى شيء. وجاءت الانتفاضة وجليت معها فلسفة الاعتماد على الذات وبدأ الناس يزرعون أرضهم، ويشترون المنتوجات المحلية، ويحتجون على

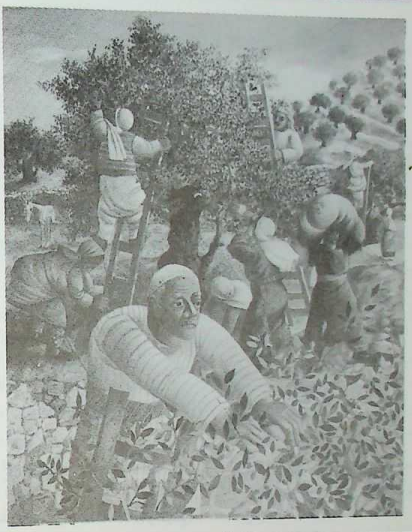

الالوان:

لم تكن الالوان في عالم سليمان منصور عبارة عن عناصر تزينية على بناء اللوحة او العمل الفني، بل كانت عناصر من صميم اللوحة ولم تكن وسائط لنقل الاحساس البصري المسطح بالاشياء على الرغم من البعدين في طبيعة اللوحة الزيتية، بل كانت وسائط يصور بها الفنان علاقته واحساسه بالاشياء، ولم توقفه اكاديمية استعمال الالوان وتحد من تلاعبه بها.. فالاخضر هذا اللون (الفض) والذي تدفعه خاصيته العضوية الى الامام في مقدمة اللوحة، نجده عند سليمان يسكن في الاغلب في خلفية الصورة بعد أن مدبه الفنان، ووضع له تلك العلاقة مع الاصفر والاحمر وهو يواجه بذلك (الموات) الذي قد يحدثه سيطرة لون بارد في العمل، ويعطي الايحاء بالخصوبة والحيوية.

الالوان عند سليمان منسابة متدرجة ممزوجة تتوالد من بعضها البعض. لا يوجد عند سليمان لون خاو، كل لون عنده له قيمته التشكيلية (فالهارموني) المعتمد في الطبيعة التلوينية تفرضه نعومة تلك الاجسام في انسيابيتها، وتكتلها، لاحظوا اللون الازرق والاخضر عادة ما يكونان موزعان ايضا على وجوه وأجسام تلك الشخوص، لتوحي بمستوى التأمل العالي عند هذا الفنان وتؤكد مرة اخرى على (اللحم والدم) الممنوعة منه تلك الاجسام.

ان استعمال الفنان للعديد من أنواع الالوان (اكريلك، زيت، الوان مائية، جواش،

Digitized by Birzeit University Library

الاحتلال باساليب ومواد وادوات محلية، وشعرت حينها بضرورة التعامل مع اللوحة من نفس المنطلق وبالفلسفة ذاتها).

وتكون خامة (الطين والقش والفراء الحيواني) هذا الفتح الجديد للفنان، ولكن ما الذي حققه هذا الفنان من هذا التوجه وما مدى ايجابيته؟

وللاجابة على هذا السؤال يلزمنا رصد جوانب وملامح هذه المرحلة التي ما زال هو يحاول اكتشافها ويجري التطوير عليها.

• ان تعامل الفنان مع الخامة الجديدة بدل الى حد كبير على تفهمه لامكانات تلك الخامة، على صعوبتها وقوتها، فقد ذهب في وجهته التطويرية الى ان يلائم خبراته المكتسبة من التصوير الزيتي وطبيعة الخامة، فجاء اختصار شخوصه الى خطوط ومساحات لونية تطلبت منه ايضا التعامل مع الوان جديدة تتناسب وروح الخامة مثل (الشيد، الحناء، الوان ترابية...الخ).

• جاء تكتيك استعمال الالوان على الخامة مناسبا لملمس تلك الخامة محدا من قوتها ومن سيطرتها على العمل في اطار جاهزيتها الوظيفية العالية.

• الابتعاد الى حد كبير جدا عن المباشرة والسطحية في الموضوع - وتوسيع دائرة التأويل لدى المتلقي.

• التخلص ايضا من الاطار التقليدي للوحة المنقولة والاستفادة من جامزية التشكيل في روح الخامة، فلم تكن الخامة عنده مسطح تجري عليه الية التشكيل، بل كانت احد عناصر التشكيل عنده.

لقد حقق الفنان، حسب اعتقادي العديد من الفوائد في وجهته التطويرية الجديدة، فقد استفاد من البعد الوجداني الذي تحدثه هذه الخامة في قلب المتلقي، وتثير فيه ذكريات بعيدة وقريبة، بعيدة في بعدها الحضاري والتي شكلت فيه تلك الخامة حجر الزاوية في حضارة ما بين النهرين عندما شع الحجر الجيري في تلك البلاد، وكان الطمس هو تلك المادة التي صنعت منها البيوت. وفي نفس الوقت، وجد الفنان القديم فيها وعليها شكل التعبير عن ذاته وكانت الى حد قريب هي تلك المادة التي صنعت منها البيوت في ساحل فلسطين ومنطقة الغور.

كذلك تقدم نحو الحداثة في استعمال تلك الخامة، وشكل الفعل الفني عليها فكان سباقا في صياغة التشكيلية، واخراجها مرة اخرى من روحها الوظيفية، وتكون في التركيب الجمالي في الفن تلك الغرابة غير المغتربة والمنسجمة مع روح الشرق وعالمه الذي لا ينضب، وبذلك، وعلى تلك الجمالية، تكون صياغة الفن في خاصيته القومية محاولة في وصل الحلقات المفقودة وعلاقتها في الرؤية الفنية الاصيلة، لتبحث في أعماقه مشاعر الراحة والامان، وذلك كما يقول الفنان وتفتح امامنا أفاقا وعوالم جديدة وبصياغة تتلائم وطبيعة العصر.

- وبعد يقول إيتان سوريو: (الموسيقى أو الشاعر هو المتحكم في زمن واضح ومباشر، أما التشكيليون فهم يتحكمون بوسائل سحرية دقيقة في زمن غير مادي يرسون أسسه أثناء خلقهم لعالم يمكن ان تبتعد أبعاده الزمانية او تتقلص بشتى الطرق العجيبة والمثيرة).

الكاتب

لأبحاث اللغة والأدب والنقد

«لاسباب فنية تأخر في هذا الشهر صدور الملحق الفصلي لشؤون اللغة والأدب والنقد، وسيصدر في وقت قريب متضمنا عددا من الدراسات والأبحاث المتخصصة».

هيئة التحرير

Digitized by Birzeit University Library

(٣)

الفن الاسلامي وخصائصه

فاطمة المحب

ان بلاد العرب لم يكن لها اهمية تذكر قبل ظهور الاسلام ولم يكن للفن فيها نصيب غير ما كان في بلاد اليمن التي وجدت فيها بعض الاثار تشبه ما كان في ارض الجزيرة اي ما بين نهر دجلة والفرات وترجع لما قبل الميلاد. لكن بعد الفتوحات الاسلامية والتوسع في مختلف الاقطار التي ارتضت الاسلام دينا اقتبس العرب المسلمون من فنون البلاد المتحضرة التي افتتحوها. لقد كان الحكم للاسلام في بادىء الامر للخلفاء الراشدين ثم تلاه حكم الدولة الاموية ومؤسسها معاوية بن ابي سفيان الذي جعل عاصمته دمشق في بلاد الشام. ولما كان الامويون اكثر مسلمي صدر الاسلام احتكاكا بالامم المتحضرة لذلك اقتبسوا من فنون تلك البلاد، وكان الامويون اول من اهتم بالعمارة، الفنية الجميلة فأقاموا المنشآت العمرانية كالمساجد في دمشق وفي القدس والتي لاتزال باقية للآن بجمالها وبهائها العظيم، مثل المسجد الاموي في دمشق الذي بناه الوليد بن عبد الملك، وكذلك بنى المسجد الاقصى المبارك في القدس.

يخطىء
من يظن ان الفنون
الجميلة قد حرمها الدين الاسلامي،
اذ لا يعقل ان يحرم الاسلام وسيلة من وسائل
نشر الثقافة، فقط ان التماثيل التي قدسها الناس في
الجاهلية واتخذوها اربابا من دون الله قد حرمها الاسلام وذلك
لفساد فكرتها وبطلان العقيدة التي اقيمت من اجلها وعليه فلا مانع من رسم
الاشخاص لتوضيح المخطوطات والكتب بمختلف انواعها من علوم
وادب وتاريخ وغير ذلك من المواضيع الثقافية، ولكن
الممنوع ان يكون التصوير من اجل الدعوة
للدين والعبادة كديانات معظم الهند
والصين واليابان وحتى
الغرب.

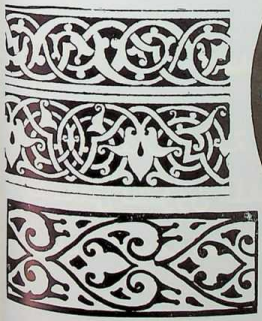

زخارف اسلامية متنوعة

Digitized by Birzeit University Library

الصخرة المشرفة من الداخل

لقد خضعت المشيدات الاسلامية لاعتبارات كثيرة استمدت اسبابها من نظام تأديه الشعائر الدينية ذلك انها قضت بأداء الصلاة فأقيمت المساجد وقضت بالمناداة للصلاة فأقيمت المآذن، واوجدت القبلة في المساجد لاتجاه المسلمين اليها، والمنابر لالقاء خطبة الجمعة وغيرها، كما انشئت الميضئات للوضوء استعدادا للصلاة ويقال ان عبد الملك بن مروان اول من ادخل القبلة المجوفة، وقد استعان بمهرة الفنيين لتحقيق مشاريعه الانشائية. ان دخول الامم الكثيرة في الديانة الاسلامية من عرب وغير العرب كبلاد فارس والهند والاتراك وغيرهم اوجد التنافس بين حكام تلك الولايات المختلفة لبناء المساجد، ولقد ساعدت وحدة الدين على تكوين طراز متشابه ولكنه لم يكن مبتكرا بل كان اغلبه مستعارا من الفنون التي ازدهرت في تلك البلاد من قبل امم البيزنطي والفارسي.

لقد اقيمت المساجد ذات القباب المتنوعة الاشكال وهذه القباب تجعل لصوت المصلين اصداء بعيدة الغور فكأنما صوتا علويا يتردد مع المصلين.

ولقد اقيمت المآذن باسقة رشيقة اما اسطوانية او مضلعة، وحليت بنقوش هندسية او نباتية، من القاشاني بالوانه البديعة، ولقد كانت واجهات المساجد اهم ما عني به فجاء اغلبها شامخا عظيما ولاكثر هذه الواجهات مدخل مهيب وباب خشبي مغطى بالصفائح المعدنية المنقوشة، اما جدران المسجد فقد غطي اسفلها بقطع من الرخام الملون على اشكال هندسية. اما جدران المسجد العلوية فقد قسموا المساحات الواسعة فيها الى اقسام رسمت عليها لزخارف الملونة البديعة وذلك لتخفيف وقع تلك المساحات الكبيرة على الرائي اما الافاريز فقد زخرفت بالفسيفساء وكذلك اماكن كثيرة كتب عليها آيات من القرآن الكريم بأحرف جميلة ومذهبة وكذلك كانت تيجان الاعمدة الرائعة مزخرفة ومذهبة، اما النوافذ فهي من الزجاج الملون المؤلف بالرصاص. والمحاريب تزين بالفسيفساء. اما المنابر فتكون من حشوات خشبية عليها الزخارف محفورة، مثال على ذلك منبر الملك صلاح الدين الايوبي في المسجد الاقصى الذي احرقه الاعداء للأسف واجمل الزخارف ما طبق على السقف وفي القباب وزوايا الجدران وقمم المداخل وان مسجد الصخرة المشرفة في القدس والذي بناه عبد الملك بن مروان، هو خير مثال على كل ما ذكر في هذا الوصف. وهو اجمل ما خلفه لنا الامويون رحمهم الله وحمى هذا المسجد باذنه تعالى، اما في دمشق فقد خلفوا الجامع الاموي وغيره من المشيدات البديعة كما انهم اهتموا بسك العملة، فقد سكها معاوية وعليها صورة فارس يحمل سيفا، اما عبد الملك بن مروان فقد جعل على العملة صورته الشخصية، ولما انتهى الحكم الاموي، في بلادنا وفي الشام انتقل الامويون الى الاندلس اي اسبانيا فابدعوا هناك ولاتزال آثارهم تدل على عظمتهم هناك. وهكذا لقد انتقل الحكم الى الدولة العباسية في العراق وعاصمتها بغداد، والدولة الفاطمية في مصر وعاصمتها القاهرة، وقد كان التنافس بينها شديدا، وتأثرت الفنون الى جانب النمط البيزنطي بالفن الفارسي، وان حب ولاة المسلمين للترف والبذخ جعلهم يزخرفون قصورهم بصور

Digitized by Birzeit University Library

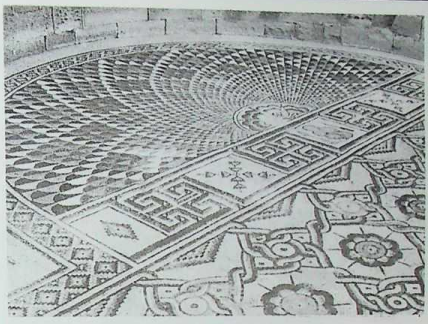

ارض مرصوفة بالفسيفساء في قصر هشام الاموي

الانسان والاحياء اما الدولة العباسية في العراق فقد بلغت اوجها في عهد الرشيد وآثارهم باقية للان ومتأثرة بالفن الفارسي اما الدولة الفاطمية في مصر فتأثرت بالبيزنطي والفارسي وكذلك في عهد الايوبيين والمماليك، لقد اعتنى الايوبيون ببناء الاسوار والقلاع فقد كان عهدهم عهد نضال مستمر انفق ملوكهم حياتهم في مقاومة الجيوش الصليبية التي ظلت تتدفق سنين طويلة لتنال عبثا من الاسلام ومجده.

ومن اثارهم القلعة في القاهرة وغيرها ولقد طبعت الأحوال السياسية دولة المماليك بنفس الطابع ومن آثارهم جامع الازهر الذي بنى سنة ١٢٦٩ ميلادية لقد بنوا الكتاتيب والمشارب (الاسبلة) وغيرها الكثير وصلت الدعوة الاسلامية الى شمال افريقيا وبلاد المغرب وجزيرة صقلية وبسطت نفوذها على اسبانيا فوصلت العبقرية الاسلامية حد الابداع في اسبانيا مثل جسر قرطبة ومسجدها الذي فيه بعض القواعد البيزنطية اما قصر الحمراء ففيه القاعات والاعمدة وتماثيل الاسود والزخارف اما جزيرة صقلية فقد غلب عليها الاسلوب الفاطمي.

فارس

احتفظ الفارسيون في مبانيهم الاسلامية بتقاليدهم السابقة غير ان الفن البيزنطي لقي هناك بعض الاهتمام فيما

زخرفة فارسية

بعد، لقد اخذ المسلمون من الزخرفة الفارسية في معظم اقطارهم واستعاروا وحداتها الكثيرة لجمالها وتنوعها. وان اجمل انواع التصوير نجده في المخطوطات الفارسية التي ذاع صيتها، وفيها تصوير للقصص والشعر والنثر والكتب القديمة، في التصوير الفارسي لم يهتموا بالمنظور (اي ظهور الاشياء على البعد اصغر فأصغر) ولم يهتموا بالظل والنور ولا ينسب الجسم الانساني او تعبير الوجه ولكن رسومهم تمتاز بالالوان الجميلة والرسم وما يحويه من تحوير زخرفي للمواضيع المستمدة من الحياة فمن يرى التصوير الفارسي يستمتع برؤيته كثيرا، وكذلك كان للفرس شأن في تحسين احرف الكتابة، العربية بخط جميل ادخلوه الى المساجد لكتابة القرآن الكريم.

الهند

يعتبر العهد الذهبي للعمارة الاسلامية في الهند من القرن الثامن والحادي عشر الهجري وتعد آثار دلهي من افخم المشيدات واجملها كما ويعتبر ضريح احمد اباد من خير ما جادت به العمارة الاسلامية غير ان الزخارف فيها شبه من البوذية والبرهمية المنتشرة في الصين واليابان.

تركيا

عندما استولى محمد الفاتح على القسطنطينية سنة ١٤٥٣ ميلادية وهكذا سقطت الدولة الرومانية الشرقية في ايدي الاتراك العثمانيين عند ذلك حولوا كنيسة (أيا صوفيا) الى مسجد تقام فيه شعائر الدين الاسلامي وقد طمس ما بها من تصاوير مسيحية واجرى بدلا منها زخارف ونصوصا من القرآن الكريم وكانت الزخارف من النوع الذي لا يتنافى مع تعاليم الاسلام كما انهم اهتموا كثيرا بالخط العربي الزخرفي وادخلوه رائعا الى مساجدهم لكتابة

Digitized by Birzeit University Library

القرآن الكريم بالذهب.

لقد صارت القواعد البيزنطية اساسا للعمارة التركية الجميلة الاسلامية التي استمدت وحدات طبعها الاسلام بطابعه فقد زهد الاسلام في استعمال رسوم الانسان والحيوان في المساجد لذلك اكثروا من الزخارف النباتية والهندسية لقد ساعدت الوحدة الاسلامية على مزج الفنون بعضها ببعض مع الاحتفاظ بالطوابع الاقليمية.

البلاد العربية

ذكرت في ما سبق انه لم يكن في بلاد الحجاز فن بل كما نعلم كان الشعر وقصص القبائل هي الفن الوحيد لديهم اما التصوير او العمارة الفنية فلم تدخل الى البلاد الا في عهد بنى امية. لقد كان المسجد النبوي بسيطا جدا في ايام الخلفاء الراشدين اما في زمن الوليد بن عبد الملك فقد اجرى تعديلا كبيرا عليه، فبناه من الحجارة، وغطيت جوانبه بالمرمر والفسيفساء، واستعملوا الزخرفة النباتية والهندسية بالوانها الجميلة، وجددوا سقف المسجد وغطوة من الداخل بالزخارف المموهة بالذهب كما عني بتذهيب تيجان الاعمدة، وقد اكمل تزيينه في عهد عمر بن عبد العزيز اما الكتابة العربية للقرآن الكريم في هذا المسجد فهي رائعة ومذهبة.

عمود من قصر الحمراء

الخط العربي الزخرفي

الكتابة العربية

ابتكر الانسان الكتابة منذ قديم الزمان كالفراعنة والبابليين والاشوريين والفنيقيين،اما العرب فقد عرفوها منذ الجاهلية وقبل الاسلام،ولقد اخذ اهل الجزيرة العربية الكتابة عن الانباط وهم عرب سكنوا قبل الميلاد في وادي موسى جنوب الاردن،وكانوا على طريق القوافل التجارية وهم المؤسسون لمدينة البتراء الاثرية الجميلة، وهكذا اخذ الخط النبطي في الحجاز يتطور بالتدريج حتى اتخذ شكلا خاصا هو خط النسخ بعد نزول القرآن الكريم.كثر الكتاب لكي يكتبوا نسخا كثيرة من القرآن للمؤمنين ليقرأوه. وبعد الفتوحات الاسلامية اسس العرب مدينة الكوفة وكثر فيها الكتاب لكي ينسخوا القرآن بخط جميل يسمى الخط الكوفي - فكتبت به المصاحف وزينوا به المساجد والقصور. وهكذا ففي عهد بني امية وعهد العباسيين كثر الكتاب المهرة فكان ذلك اصل الخط الذي نكتب فيه الآن. اما في العهد التركي فقد نشط الفن العربي للكتابة ووصل درجة الابداع واصبح هنالك يوجد كتابا عدا تركيا في مصر وبغداد ودمشق وبيروت والقدس حتى وصل الى بلاد فارس حيث حسنوه وسمي خطهم الجميل بالفارسي.ان الخط العربي من اجمل الفنون العربية الاسلامية، فمجال الابداع فيه واسع وذلك لانسجام اشكال الحروف وطواعيتها على التفنن ونرى ذلك في الخط الرائع في مسجد الصخرة المشرفة لقد طبعت الكتابة العربية الفن الاسلامي بطابع فريد من نوعه جعلته مشهورا في العالم اجمع.

زخرفة بالفسيفساء في اسبانيا

Digitized by Birzeit University Library

المسرح المحلي

وضرورة الكتابة المسرحية

محمد داود

قبل بضعة اشهر شهدت مدينة القدس مهرجان المسرح الفلسطيني، حيث كانت احدى دلالاته الهامة تشير الى حركة حثيثة للعمل المسرحي في بلدنا ونشاط مفعم بالحيوية لدى مسرحيينا. ولكوني لست من المداحين او "الرداحين" فلن اتمرض لهذا المهرجان باية كلمة مادحا او ذاما او حتى ناقدا، اذ ان هذه المقالة تهدف الى قضية اخرى، لان اية عملية نقد كتابية من الافضل لها ان تتريث كي يجلس المسرحيون وجها لوجه وينتقدون بعضهم بعضا على ما قدموه خلال المهرجان.*

تهدف هذه المقالة الى التحدث عن مسألة في غاية الاهمية بالنسبة لمسرحنا المحلي الا وهي ضرورة الكتابة المسرحية، بمعنى اخر ضرورة ان نكتب اعمالا محلية تعكس واقعنا بما فيه من آمال وآلام...الخ.

انني اعتقد كما أن الكتابة المسرحية المحلية هي خير ما يمكن له ان يعكس واقعنا اذا ما سارت وفق فهم علمي والتزام بالمصلحة العامة، وهذا ما نحتاج اليه. فمسرح محلي يريد ان يقدم ما عليه من واجب تجاه الجمهور والوطن. عليه ان يبدع نصوصه ابداعا مصورا واقع شعبه تصويرا حيا وحقيقيا ودافعا بكل قوته بمسيرة هذا الشعب نحو الغايات المرجوة.

اما التعكز على النصوص الخارجية وبشكل خاص الاوروبية والامريكية وغير ذلك من النصوص الاجنبية بدعوى انها "عالمية" ومحاولة تكييفها على واقعنا كما تكيف اثواب "البقج" على اجساد فقراء شعبنا فهذا لا يخدم الغايات المرجوة، بل يخلق مسرحا اعرجا قسمه الاعلى فلسطيني والاسفل اجنبي، او العكس.

قد لا يعجب كلامي هذا البعض من الاصدقاء، وقد اتهم بالقومجية والشعوبية والاقليمية، وعدم فهم او تذوق الادب "العالمية" والتحجر، والانغلاق والى ما لا نهاية له من هذه المصطلحات. ولكن رغم ذلك لن يجرؤ اي صديق على مناقشتي كون العرض الاجنبي لا يمكن له مهما "افاد" مسرحنا المحلي، ان يدفعه باتجاه ان يكون مسرحا وطنيا. لماذا؟ لان المسرح الوطني هو ما يقوم على الابداع المحلي اولا واخيرا.

ان النصوص "العالمية" لا تخلو من فائدة، فروائع شكسبير وبريخت وبيكيت وكامو وسارتر وغيرهم، لا يحط من قيمتها اذا قلنا انها ليست غايتنا، كذلك لا يمنع هذا ان نقدمها على مسارحنا ولجمهورنا، ولكن شريطة الا نتلاعب بها بدعوى "الاعداد" ومحاولة "تكييفها" وطلاءها بالوان محلية، لتقوم بدور يتعلق بوطننا ومجتمعنا وهي غريبة عنه اصلا.

انني اعتقد ان عروض "التكييف" هذه هي في معظمها تؤثر على العجز وتأييد له، والاختباء خلف النص المسرحي "العالمي" والمعروف جدا للقاصي والداني، للصديق والعدو بمعنى آخر الظهور امام الصديق بمظهر الوطني والصدامي، والغمز من ناحية اخرى بان الامر لا يتعدى مجرد عرض

* ورد الى سمعي انها - وارجو الا يكون مجرد اشاعة عابرة - يتحدث حول نية المسرحيين الى دعوة من يهمهم امر المسرح الى جلسة نقاش ونقد علنية وعامة لما قدموه خلال المهرجان. ارجو ان يتحقق الامر لما فيه من فوائد جمة - ملاحظة: لم يتحقق هذا الامر وهذا شيء طبيعي في بلدنا.

Digitized by Birzeit University Library

مسرحي لكاتب اجنبي لا علاقة له بقضايا المنطقة.

ارجو ان يكون رأيي واضحا والا يعتقد بانني ضد الاجنبي جملة وتفصيلا.

مشكلات الكتابة المحلية الثلاث:

يمكن القول ان هناك نوعين من الكتابة المسرحية او النص المسرحي المحلي. النوع الاول وهو الكتابة الارتجالية التي لاقت رواجا في السبعينات وما زالت حتى الان تتمتع بالسطوة، اذ ان لها المتمسكين بها والمتحمسين لها خصوصا بعض المسرحيين المخضرمين.

تقوم الكتابة الارتجالية على الجهود الجماعية، ان تجتمع الفرقة المسرحية او طاقم العمل كما يسمون احيانا ويأخذون بعصر أدمغتهم وارتجال حركات ومقاطع، يتم تجميعها في النهاية وتهذيبها وتشذيبها لتكون اخيرا نصا مسرحيا ملائما.

ان هذه الطريقة رغم فوائدها تختزل الكتابة المسرحية من عمل فني ابداعي الى فن تطبيقي.

اما النوع الثاني فهو الكتابة التي يقوم بها شخص واحد متعاملا معها كما يتعامل العالم مع اكتشافه الجديد دون معرفة له بانواع المطارق والمناشير والاعتدة الاخرى التي يستعملها العامل الفني المحترف.

ومع انني قد اكون ميالا اكثر الى النوع الثاني من الكتابة، الا انني لا اعتقد ان النصوص المحلية التي تنتمي لهذا النوع اثبتت جدارتها بشكل حاسم بما يتفوق على ما انتجه النوع الاول.

ان الحديث عن مشكلات الكتابة المحلية رغم اهميته القصوى من شأنه ان يثير خواطر البعض خصوصا حين توجيه الأمر ان هناك مشكلتين مترابطتين لو يتغلب عليهما مسرحيونا لامكننا القول اننا ارتقينا من طور الى طور افضل الا وهما نزعة الاحتراف واهمال التثقيف الذاتي.

اقول هذا وانا مدرك للاسف ان هاتين المشكلتين منتشرتان في اوساط مسرحينا انتشار النار في الهشيم.

لن اناقش هاتين المشكلتين فيما يخص الممثلين او المخرجين او بقية اعضاء الطاقم المسرحي فالكل على علم بهما، اذ ليس هناك من محترف مسرحي يعتمد في قوته - وغير قوته - على القيمة الفائضة التي تعطيها عملية بيع التذاكر، هذا اذا كانت هناك فعلا قيمة فائضة، فالمسرح كما اعلم - عدا عن المسرح التجاري التهريجي - تاريخيا لا يورث لصاحبه الا الفقر. قد يكون الامر في بلادنا على غير ذلك.

بالنسبة للكاتب المسرحي، فان الاحتراف لديه - عوضا عن انه غير وارد في ظروفنا - اشبه بمن يحاول الحصول على المولود من القابلة المحترفة بدل الحصول عليه من الام التي حملت به. أي ان الكاتب يتحول في حالة الاحتراف الى منتج بضائع بالجملة، بدلا من ان يكون فنانا، هدفه انتاج بضائع مسرحية كثيرة العدد وتتمتع بمواصفات يحددها السوق، بمعنى اخر تحددها اذواق الجمهور بغض النظر عما اذا كان الجمهور متطورا بمفاهيمه ام غير ذلك و هذا كما يعلم الجميع تساوقا مع شعار "الجمهور عايز كده" وهو ما يؤدي الى انحطاط الكتابة المسرحية وانحداها من مكانة الوعي الى مكانة العفوية.

ماذا نقصد بالعفوية وماذا نقصد بالوعي؟

ان العفوية، هي ادراك الجمهور لاهمية ووظيفة العمل المسرحي وفقا لاعتقاداته ومستوى ثقافته وفهمه، ومهما بلغ بعض النابغين من الجمهور ومهما ارتفع مستوى ثقافتهم الا انهم لن يبلغوا مستوى الكاتب المسرحي المبدع.

اما الوعي فهو الارتقاء عن مستوى توقعات الجمهور وثقافته وفهمه ورغباته وهذه اهم نقطة الى مستوى اعلى يكون باستطاعتنا السعي الى خلق جمهور من نوعية جيدة.

من هنا فان مستوى الكتابة الجيدة يتمحور حول السعي لبلوغ مرحلة الوعي، أي وعي قضايا الجماهير ومشاكلهم وغاياتهم وثقافتهم وامزجتهم، والعمل على طرحها وتوضيحها دون تغليف او مداراة، والارتقاء بالجمهور الى مستوى افضل.

ان تقديس الجمهور هو تقديس للعفوية، وهذا يؤدي الى التشتت فيما يريده الجمهور ويقود الى تحويل العمل المسرحي الى بضاعة، والمسرحي الى تاجر او حرفي ويقضي على المهمة النبيلة للمسرح، وهي الارتقاء بالجماهير وهنا يتحول الجمهور من جمهور مسرح الى جمهور سوق يقلب البضاعة كما يريد فيشتري ما يلزمه ويترك ما لا يلزمه.

ان الكاتب المبدع لا يكتب بضاعة، بل يكتب فنا وابداعا.

المشكلة الثانية: اهمال التثقيف الذاتي، فهي في غاية الخطورة سيما وانها منتشرة في صفوف مسرحيينا عامة وكتابنا المسرحيين خاصة.

إذ ان اقول ان هناك نزرا يسيرا من الكتاب المحليين الجيدين. ولست هنا بمعرض استعراض الاسماء، فهذه العملية تضر اكثر مما تنفع. مع ذلك فان الغالبية العظمى من مسرحيينا الموقرين خصوصا منهم من يكتب "مسرحا" تفتقر للحد الادنى من الثقافة العامة (الهامة جدا) والثقافة المسرحية (الهام جدا + جدا) وهذا ما يعطي مبررا لبعض انصار النص الاجنبي الذين يشيرون حقيقة اسماكهم للعصى من الوسط، بهزل او ضعف النص المحلي، مع انهم هم ايضا يعانون هزلا في الثقافة والثقافة

Digitized by Birzeit University Library

المسرحية بما لا يقل عن مستوى الكتبة الهابطين.

ان الفنان الاصيل والكاتب المبدع هو الذي يمثل نبض الشعب، ويسعى دوما لرفع مستوى الجمهور ويحفزه ويزيده قوة ونشاطا، وهذا لا يمكن له ان يتحقق الا اذا تمتع الفنان بثقافة عالية او على الاقل برغبة في التثقيف والتثقيف الذاتي.

المشكلة الثالثة هي مشكلة النقد المسرحي، سواء نقد النص، او نقد العمل المسرحي ككل.

لقد سبق العمل المسرحي في بلادنا عملية النقد المسرحي ولم يسيرا سوية، وقد يكون هذا الامر امرا طبيعيا بشكل عام ان الشيء غير الطبيعي في بلادنا هو عدم وجود نقد مسرحي جيد المستوى، رغم ان المسرح نراه في حركة دائمة وتطور جيد. وهنا لنسمح لانفسنا بهذا السؤال، لماذا لا توجد في بلادنا حركة نقد مسرحي جيدة المستوى، اي حركة تترفع عن المدح "والردح" الذي نراه من يوم لاخر في بعض الصحف والمجلات سواء الجيدة منها ام الرديئة؟

انني اعتقد ان السبب الرئيس في عدم وجود حركة نقد مسرحي جيدة في بلادنا يعود الى عدم وجود حركة مسرحية متجاوزة المستوى المسرحي الاكاديمي. فالمعروف ان الغالبية العظمى لمسرحيينا لم تتعلم المسرح في معاهده الاكاديمية، وهذا يعود لظروف موضوعية في اغلب الاحيان، الا انه يفتح المجال امام الكثيرين من الادعياء ليطرحوا انفسهم كمسرحيين افذاذ ومنتحلين ما طاب لهم من الصفات والشخصيات، ففي بلادنا من السهل جدا ان تكون مسرحيا، سواء كاتبا ام ممثلا، ام مخرجا، وحتى ناقدا ان اردت، على ان قضية النقد هذه تتطلب مهارات وامكانيات متعددة ليس من السهل ان تتوفر في كل شخص وهذا ما أدى الى قلة عدد "النقاد" وكثرة عدد الممثلين والكتبة والمخرجين..

ان "نقادنا" ان جاز التعبير هم على الغالب جزء من حاشية الفرقة الفنية او الاخرى وبالتالي فمن الطبيعي ان يجيء "نقدهم" كعود النعناع او كالنسيم العليل على العمل المفروض نقده.

وغالبا ما يكتب "الناقد" بناء على طلب الممثلين او المخرجين من هذه الفرقة او تلك، وبالطبع تتوقع الفرقة التي يكتب عنها "ناقدها" ان يظهر محاسنها ومفاتنها، لانه "صديق". وللانصاف اقول ان هناك بضعة استثناءات قليلة وقد تكون اقل من قليلة سواء في صفوف "النقاد" ام في صفوف المسرحيين ممن لا يطربهم المديح ويتوقون لنقد جيد المستوى.

بعض صفات الكتابة المسرحية الجيدة:

لست هنا بصدد وضع قواعد وقوانين للكتابة المسرحية تكون بمثابة قوالب جامدة وتقييدات لها، لكني بصدد ابداء راي خاص حول بعض الصفات الجيدة للكتابة المسرحية اتمنى ان تدخل الى مسرحنا المحلي.

كما اشرت سابقا، فان الكتابة المسرحية الجيدة ليست خضوعا وتقديسا لعفوية الجمهور، لكنها مع ذلك تأخذ من الجمهور هدفا لها، فالفني الجيد هو ما يتجاوز شعار الفن للفن، اي الذي يهدف الى المتعة فقط ومنع الارض صورا عن سمو السماء، وبالتالي يضع الشعب والجماهير بكل قضاياهم، والحياة بكل تناقضاتها موضوعا وهدفا له ساعيا الى الاثارة والقلب والتغيير، وهنا يصدق من يقول ان افضل انواع الكتابة المسرحية هو "اسوأ" انواع الكتابة، "اسوأ" بمعنى انها ليست بالكتابة اللطيفة والظريفة والجيدة من وجهة نظر المصلحين الاجتماعيين والراديكاليين الطبيعيين والمسالمين بل الكتابة التي "تضر" ما هو مألوف وثابت.

ان الكتابة الجيدة هي انعكاس للحقيقة سواء استحسناها ام استقبحناها وليس انعكاسا لاعتقاد ذاتي ضيق، اما جودتها فتكمن في عمقها وحيرتها حتى ولو بدت للبعض بانها غير مفهومة وغير لذيذة، فالكتابة المسرحية هنا ليست مكانا للهابطين والتافهين، بل لكل من لديه النية والاستعداد والجرأة لان يتطور ويصل الى مصاف العظماء.

ان كتابة حيادية، رقيقة، رشيقة، لا تضر ولا تنفع هي اردأ انواع الكتابة وليس لها مكانا في عالم المسرح، أما الكتابة الجيدة فهي الكتابة المناضلة، الخطرة، الهدامة التي تبحث عن الحقيقة وعن الانسانية الضائعة والمغتربة ولا تبتغي الاستقرار في سوق النخاسة الذي يبتلع الكثيرين هذه الايام.

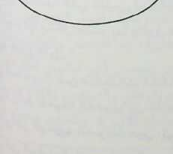

Digitized by Birzeit University Library

بسام زعمط

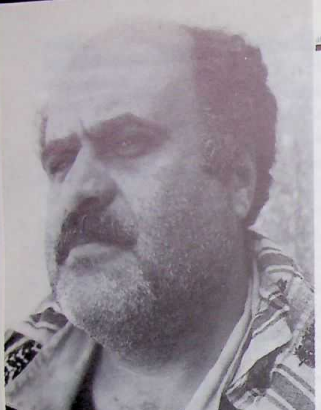

«وداعا وصلوا حتى نلتقي»

نرجمة حرفية للمقابلة التي اجرتها صحيفة «كول يروشلايم» الاسرائيلية مع الفنان بسام زعمط، والتي نشرت بتاريخ ١٩٩١/٨/٣٠

«وداعا وصلوا حتى نلتقي».. هذه هي الرسالة التي وجهها الممثل العربي المشهور بسام زعمط الى الجمهور اليهودي بعد قراره المفاجيء بوقف العمل نهائيا في التلفزيون الاسرائيلي خاصة والمسرح العبري بشكل عام.

مطعم ابو رامي، جيران، حكايات العم خليل، كأس البطولة «فيلم»، كل هذه، بالاضافة الى عدد كبير من المسرحيات والادوار الاخرى جعلت من بسام زعمط شخصية مشهورة ومحبوبة لدى المشاهدين اليهود بدرجة لا تقل عن شهرته لدى الجمهور العربي، جعلته نجما كوميديا من الدرجة الاولى، بالاضافة الى امتيازه ايضا بالادوار الجادة على خشبة المسرح.

في بداية الاسبوع، توجه زعمط، صاحب الرصيد الكبير من المشاهدين الاسرائيليين، ذو الاربعين عاما، توجه الى المسؤولين عنه في التلفزيون الاسرائيلي معلنا وأنا آسف جدا».. ولكني متوقف عن العمل.. وفي مساء يوم الاثنين، في بيته بشفاعاط، حيث كان يجلس محاطا برعاية زوجته وابنته قال لي:-

ولك حظ كبير لانني في مزاج جيد اليوم، والا لما كنت اجريت هذه المقابلة، فهذه امور من الصعب جدا تفسيرها، فقد سبق وان اتصل بي عدد من الصحافيين ورفضت، ولكني أمل ان توصل هذه المقابلة الرسالة بشكل صحيح ودون فبركة صحفية».

* ولماذا تفجر فجأة؟

** هذا قرار شخصي محض، وليست له اي علاقة باي جهة او شخصية معينة. فبعد عشرين عاما من العمل على شاشة التلفزيون الاسرائيلي، بدأت اشعر ان الظهور على شاشة التلفزيون، هو دعم تقني للفنان وليس فني، فمن خلال تجربتي في البرامج التلفزيونية شعرت بالشعبية الكبيرة التي حظيت بها في الشارع اليهودي والشارع العربي، واحسست جدا بان هذا هو الوقت المناسب للمساهمة في بناء المسرح الفلسطيني، ففني يجب ان يصل اولا الى الاطفال العرب الذين انا جزء منهم.

وحرب الخليج، كانت القشة التي قصمت ظهر البعير، فقد بث التلفزيون الاسرائيلي في تلك الفترة، ما بين عشرة الى خمسة عشر برنامجا ترفيهيا للاطفال اليهود دون ان يبث حتى ولا برنامجا واحدا للاطفال الفلسطينيين القابعين في سجن جماعي بسبب حظر التجول، ومع كل هذا، فقد اتصلوا بي من التلفزيون التعليمي عدة مرات، لاشترك في برنامج الاستوديو المفتوح، من اجل الترفيه عن الاطفال اليهود، لم استطع ان افهم، كيف يطلبون مني ان ارفه عن الاطفال اليهود، بينما الاطفال الفلسطينيين مسجونون في بيوتهم بسبب منع التجول او حتى يقتلون، فكيف

Digitized by Birzeit University Library

لا يتحرك الضمير، ردة فعلي كانت قاسية جدا.

فكل انسان لا بد وان يعود الى جذوره.. الى شعبه.. وحتى لو لم تكن حرب الخليج هي الدافع والمحرك فان عاجلا او آجلا كانت ستظهر الاسباب التي ستؤدي الى توقفي عن العمل.

* هل عطلت بعملك هذا اعمالا في التلفزيون؟.

** كنت امور مسلسلا كوميديا جديدا للقسم العربي، وكان من المفروض ان نصور اثنتي عشرة حلقة، ولكني بعد تصوير اربع حلقات توقفت عن العمل.

قررت باني منذ هذه اللحظة سأوجه كل طاقاتي الى اصدقائي في المسرح الفلسطيني، ان اساهم معهم في بنائه، وقد يكون الممثلون في هذا المسرح اكفأ مني، ولكني متأكد بان لدي ما اقدمه لهذا المسرح.

قبل حوالي شهرين قال بسام زعمط في مقابلة مع نفس هذه الجريدة بانه يتطلع لقيام الدولة الفلسطينية، وحين سئل ان كان سيستمر في العمل في التلفزيون الاسرائيلي في حال قيام الدولة الفلسطينية اجاب «ان كانت الحدود مفتوحة ودعيت فلم لا. لربما السر في نجاحي هو اني استطيع اضحاك الشعبين الخصمين في آن واحد» الدولة الفلسطينية لم تقم بعد ولكن بسام زعمط انتقل ليعمل وينتج فيها هذا الاسبوع.

* هل كانت عليك ضغوطات من اي جهة كانت للانقطاع عن اسرائيل؟

** اطلاقا، فقد سبق وقلت بان هذا قرار شخصي محض، وانا الوحيد المسؤول عنه، لم يكن علي ضغط من اي جهة كانت.

في كل الفترة التي عملت بها في التلفزيون لم اقدم اي عمل سياسي يسيء الى شعبي. برنامج جيران كان مسلسلا سياسيا بجميع المفاهيم، وقد وافقت على الاشتراك فيه بالرغم من اننا كنا في بداية الانتفاضة، وكان هذا القرار اخطر قرار اتخذته في حياتي، وهو الموافقة على الاشتراك في برنامج كهذا.

* ولماذا وافقت؟

** لانه الان وحتى بعد قراري وقف العمل في التلفزيون والتوجه للمسرح الفلسطيني، فانا ما زلت مؤمنا بالسلام، وسأنادي به، وسأستمر بايماني بالسلام والمناداة به من على خشبة المسرح الفلسطيني، تماما كما ناديت به من خلال شاشة التلفزيون بواسطة برنامج جيران، والان سأنادي بالسلام العادل من على خشبة المسرح الفلسطيني.

* هل توجه اليك فنانون فلسطينيون للعمل معهم؟

** لا.. فأنا اصلا ابتدأت طريقي في المسرح الفلسطيني، او بالاحرى لقد عملت في المسرح الفلسطيني حتى بداية الانتفاضة، وبعدما انشغلت في البرامج التلفزيونية، مثل مطعم ابو رامي وجيران، مما اضطرني للابتعاد عن المسرح الفلسطيني.

* والان كيف تفسر قرارك هذا لاصدقائك اليهود؟

** بكل بساطة.. فكل اصدقائي اليهود بمن فيهم الذين عملت معهم، يعرفون من انا جيدا، حتى قبل ساعة، اتصل بي اصدقاء من الممثلين الذين عملت معهم من تل ابيب، وطلبوا ان نلتقي حتى بعد ان سمعوا عن قراري، ما زلت ارتبط بصداقات مع كثير من اليهود الذين عملت معهم، فقراري وقف العمل في التلفزيون والمسرح العبري، لا يعني تحريم الصداقات التي تربطني بكثير من اليهود التقدميين، انه تحريم فقط على التلفزيون كوسيلة اعلام.

* كيف كانت ردة الفعل على قرارك في التلفزيون؟

** في الواقع لا اعرف، لقد توجهت اليهم وقلت «هذا هو.. لا استطيع الاستمرار». لم اكن مربوطا معهم باي عقد ولهذا فلم اكن مديونا لهم باي تفسير. فانا كأي موظف قرر ترك عمله.

لم يحاول احد اقناعي بالعدول عن رأيي، فهم يعرفون بسام منذ عشرين عاما ويعرفون ماذا يعني قرار بسام.

لقد ابتدأت بالتفزيون عن طريق المخرج انطوان صالح الذي هاجر الى استراليا هو وعائلته، واول عمل لي في التلفزيون كان دراما «المحطة» بدور رئيسي جنبا الى جنب مع مكرم خوري ويوسف فرح. ولأكون صريحا معك، فقد شدني جدا العمل في التلفزيون، احببت العمل هنا كثيرا، وقد كنت متفاهما جدا مع الذين عملت معهم، الدعاية والشهرة شدتاني جدا لم يكن الموضوع موضوع نقود، فانت تعرف بانهم لا يدفعون جيدا. ولكن احد الاسباب التي جعلتني استمر في العمل، هو المعيشة. كنت في حاجة ماسة للعمل الذي لم اكن احصل عليه مباشرة من التلفزيون، بل من الدعايات التي كنت اقوم بها للوتو والتوتو وغيرها. التلفزيون كان فقط واسطة للدخل، فانا رب اسرة، وقد افتتحت متجرا في مدينة رام الله ولكني لم انجح به واعلنت افلاسي وتورطت في ديون كثيرة مع بداية الانتفاضة. ولمدة عشرين عاما تقريبا، كنت الماركة المسجلة للقسم العربي في التلفزيون الاسرائيلي.

* هل من الجائز ان تعود عن قرارك؟.

** هذا قرار نهائي لا رجعة فيه، فاولا وقبل كل شيء انا انسان، وتمر على الانسان فترات يحتاج او يطلب فيها التغيير، وانا متأكد باني لن اتراجع عن موقفي هذا ابدا، ولو شعرت بان عندي بعضا من تردد في قراري لكنت قد اخطأت، ولكن من جهة ثانية، لو كان لي في المستقبل نجاح قوي على خشبة المسرح الفلسطيني وجمهور مسرحي يحبني، فعندها سأندم على كل لحظة اضعتها في العمل في

Digitized by Birzeit University Library

للتلفزيون، القرار كان صعبا، ولكن ان اعمل شيئا فوق ارادتي، فهو اصعب.

* الا تعتقد بانه بالرغم من قرارك، ما زال بك فنانا لو لقالة اسرائيلية؟

** طبيعي جدا ان يربط بيني وبين الثقافة الاسرائيلية، ولكني اريد ان اوضح لك مرة اخرى، بان بداياتي الفنية كانت على خشبة المسرح الفلسطيني، فانا اولا وقبل كل شيء فلسطيني، صحيح انني عملت بالتلفزيون الاسرائيلي، ولكن بجميع المقابلات التي اجريت معي على صفحات جميع الجرائد الاسرائيلية العبرية وحتى الاجنبية، كنت اتحدث دائما عن الموضوع الفلسطيني.

انا اتوقع صعوبات في البداية، قد يكون هناك من يرفض صوتي، من لا يفهم خطوتي او قراري هذا، ولكنهم قلة حتى الان شجعت وبوركت خطوتي من غالبية الفلسطينيين. لقد عدت الى المسرح الفلسطيني، لاساهم واشارك في مسرحيات سياسية، ولن امانع في مسرحية تتحدث عن معتقل انصار مثلا.

* انت تعرف انه يمكن لسلطات الامن ان تبدأ بمضايقتك؟

** هذا متعلق بهم، وانا جاهز لكل شيء، انا لست سياسيا، انا فنان، ورسالة جميع مسرحياتي ستكون السلام ومستقبل ابنائنا واطفالنا. ولا اعتقد ان تسمح لديمقراطية الاسرائيلية التي تنادون بها ان تعاقبني او تحدد من خطواتي، وإن كنت خائفا من شيء، فمن المتطرفين اليهود، لانه حصل وهددوني مرة، فبعد برنامج جيران اتصلوا بي مرة وقالوا لي، ان تستمر في هذا البرنامج سنقتلك، وقد اخبرت الامن في التلفزيون وقتها عما حدث، وعلي ان اخاف واحذر من المتطرفين اليهود وليس من الفلسطينيين، لاني متأكد بان الشعب الفلسطيني سيستقبلني بترحاب.

انا انوي تكوين فرقة فلسطينية مع بعض الفنانين الاصدقاء. قد ابدأ اولا مع صديقي الفنان جورج ابراهيم، واعيد معه الى المسرح مسرحية المغتربان التي عرضت في الماضي ونجحت، والمسرحية تتحدث عن فلسطينيين يعيشون في الشتات، وانا كفلسطيني لي الحق كل الحق في التحدث عن موضوع كهذا. تماما كما للفنان اليهودي الحق في التحدث عن مذبحة اليهود وقت النازية، فلي الحق في عرض مأسي شعبي الفلسطيني والحديث عنها، واحد زائد واحد يساوي اثنان، فبسام زعمط لا يستطيع ان يقدم مسرحية عن المذبحة اليهودية في المانيا، بالرغم من انه يتعاطف مع هذه القضية بالذات، واجبي الان التحدث عن معاناة الشعب الفلسطيني في كل مكان. اتسمع ماذا يحدث لنا الان حتى في الكويت؟

ابنته اديل في الصف الاول الاعدادي في راهبات الوردية في القدس، لقد سرت جدا من قرار ابوها هذا وانا لا اريد ان يعمل ابي في التلفزيون الاسرائيلي» هكذا قالت لي.

سبب آخر دفعني لاتخاذ قراري هذا، وهوفيلم كأس البطولة، والذي لعبت فيه دور مقاتل فلسطيني، بعد ان رأيت الفيلم، كرهت نفسي، عندما قرأت السيناريو، كان شيئا آخر، وبعد عملية المونتاج اصبح شيئا مغايرا جدا.

* لاي نوع من التعايش سوف تدعو في عملك القادم؟

** التعايش الذي تحدثنا عنه في جيران، يختلف كليا عن التعايش الذي سأتحدث عنه في المسرح الفلسطيني، في برنامج جيران تحدثنا عن التعايش داخل الخط الاخضر، بين العرب واليهود، اليوم انا اتحدث عن تعايش من نوع اخر. بين دولتين وبين شعبين. وهذا كان موقفي دائما. ففي جيران، اعتبرت البيت الذي يعيش فيه اليهودي هو دولة اسرائيل، وبيت العربي هو دولة فلسطين.

* قرارك هذا يبدو لي غريبا، وخصوصا في الوقت الذي تتوجه فيه كل الجهود للسلام؟

** وهذا سبب آخر ولعله اهمها، فاسرائيل ترفض كل الرفض اي تمثيل للقدس الشرقية في مؤتمر السلام، وانا كفلسطيني يتحتم علي ان اتخذ موقفا واضحا في هذا الموضوع.

فالقدس هي اهم قضية، اللعب على الحبلين يكسر الراس، واللعب على حبل واحد قد يكسر الرجل، وعليه فلا استطيع ان اقدم القدس المحتلة على طبق من ذهب للشعب اليهودي، فالمخدة التي اركز عليها رأسي حين اخلد للنوم لا استطيع ان اعطيها لاي شخص آخر، فعندما اكسر عنقي، وحسب رأيي، فان الشعب الاسرائيلي لا يبحث اطلاقا عن السلام الحقيقي، هناك فجوة كبيرة بين هذا الشعب وبين حكومته، الكثير من الاسرائيليين الذين اقابلهم، يقولون لي بانهم ينشدون السلام، ولكنهم لا يفعلون شيئا من اجل هذا السلام، في حياتي لم ار ركودا في شعب، كالشعب اليهودي.

* تحدث عن بسام الانصاري؟

** اولا بسام هو اكثر من انسان واحد. ولدت في القدس القديمة في شارع الاسباتيرول، انا مشدود جدا ومتعلق جدا بمدينة القدس، ودائما كنت اقول، بان لا يوجد بديل لهوائها في العالم. حين كنت ادخلها بعد غياب بضعة ايام عنها، كنت احس به يعود الى جسدي. اصل عائلة زعمط هو من شرق الاردن، جدي سكن القدس وانا ولدت بها، درست في كلية تراسنطة، وعملت مذيعا لمدة عام في الاذاعة الاسرائيلية ثم سافرت لمدينة حيفا، وهناك درست الاخراج والتمثيل المسرحي

Digitized by Birzeit University Library

على ايدي مدرسين روس كانوا من القادمين الجدد.

* هل ستبقى على اتصال باصدقائك اليهود؟

** ليس في نيتي ان اقطع علاقاتي باصدقائي اليهود، الشعب اليهودي قاسى كثيرا في الماضي، وإني لاعجب كيف شعبا كهذا يسمح لنفسه بان يسوم شعبا آخر نفس العذاب الذي ذاقه هو.

لا يمكن ان تمحي من ذاكرتي صورة الطفلة الفلسطينية التي فقدت احدى عينيها من رصاصة مطاطية، وفي نفس الوقت لا يمكن ان انسى صورة الطفلة اليهودية التي جرحت براسها من ضربة حجر. اذكر اني رايت الصورتين بنفس الجريدة، ولكن صورة الطفلة اليهودية كانت على الصفحة الاولى وصورة الطفلة الفلسطينية في احدى الزوايا الداخلية، بكيت بعين واحدة على اليهودية وبالاخرى على الفلسطينية، بكيت بكلتا عيناي على الطفلتين، ولهذا فعلي ان اقلق وان اعمل بشأن مستقبل اطفالنا، وهذا هو واجب كل فنان.. بسام زعمط لم يتغير، انما اشياء بداخله تغيرت، بكل بساطة يريد ان يكون فلسطينيا اكثر، ولا اريد ان تفهموا ان قراري هذا هو حرب على اليهود، فانا لست ناهبا الى المسرح الفلسطيني كي اوجه الكلاشينكوف في وجه اليهود، لقد اعطيت الشعب اليهودي من فني عشرين سنة اكثر مما اعطيت الشعب الفلسطيني، وهذا كان خطأ كبيرا اعترف باني فعلته، والان حان الوقت لاعطي شيئا لشعبي، واتأمل من جميع اصدقائي اليهود ان يفهموا هذا، وان كنت آسف على شيء فعلى اصدقائي الذين كنت في علاقات طيبة معهم، وسأتوقف عن العمل معهم، وأنا آسف لاني لن استمر في العمل معهم».

ملاحظة: استلم بسام زعمط هذا الاسبوع ولاول مرة، ورقة ضريبة تلفزيون بمبلغ ثلاثة الاف شيكل.

مهرجان القاهرة الدولي الثالث للمسرح التجريبي

يفتتح في الاول من هذا الشهر مهرجان القاهرة الدولي الثالث للمسرح التجريبي الذي تشارك فيه فرق مسرحية من ثماني وعشرين دولة تقدم على مدى عشرة ايام ثلاثة واربعين عرضا مسرحيا.

وفي المهرجان احدى عشرة دولة عربية تشارك في الاعمال التالية ..

قطر «رايت الذي سوف يحدث» لفرقة المسرح الشعبي.

دولة فلسطين ..«اغتصاب» و«المجنزرة» لفرقة المسرح الوطني الفلسطيني.

لبنان..«القمر بيضوي ع الناس» لفرقة مسرح الثور و «الجرس» لفرقة الحكواتي.

البحرين..«نداء الدم» لفرقة مسرح ادال.

تونس..«كوميديا» لفرقة المسرح الوطني التونسية.

المغرب.. «ايرما» لفرقة معهد الفن المسرحي المغربية.

الكويت .. «الثار» لفرقة المسرح الكويتي.

ابو ظبي .. «حبل رمل» لفرقة المسرح الاهلي.

اليمن .. «وفا» لفرقة المسرح الوطني.

سوريا .. «موت فوضوي صدفة» لفرقة المعهد العالي للفنون المسرحية.

وتشارك مصر بعرضين مسرحيين لم يقع الاختيار عليهما الى الآن.

ومن جهة اخرى تشترك في المهرجان فرق تجريبية من سبع عشرة دولة غير عربية هي المجر وروماتيا والمكسيك واليابان والبيرو وفنلندا وسنغافورة واليونان الفيليبين والولايات المتحدة واسبانيا وفرنسا والاتحاد السوفياتي وبولندا والهند والنمسا وايطاليا.

والى العروض المسرحية ينظم المهرجان مجموعة من الندوات واللقاءات الفكرية وستناقش الندوة الرئيسية للمهرجان قضية «التجريب والتغير الاجتماعي في ضوء المتغيرات العالمية» على مدى ثلاثة ايام من خلال محاور «التجريب والديمقراطية» و «التجريب والدور الاجتماعي». وبين المسرحيين الذين سيشاركون في هذه الندوة المنصف السويسي «تونس» وسعد الله ونوس «سوريا» وغالي شكري «مصر» وعبد الكريم برشيد «المغرب» وبول شاوول «لبنان» وعبد القادر علولة «الجزائر» ومن فرنسا والولايات المتحدة.

وتنعقد في اطار المهرجان لقاءات فكرية مفتوحة مع مسرحيين عرب واجانب يتحدثون من خلالها عن تجاربهم ورؤاهم المسرحية وهم نضال الاشقر «لبنان» وممدوح عدوان «سوريا» وعز الدين المدني «تونس» وفؤاد الشطي «الكويت» وسمير العصفوري «مصر» ولاورا فراوبو «الولايات المتحدة».

وقررت ادارة المهرجان هذا العام ارساء تقليد جديد يتمثل في تكريم مجموعة من المسرحيين العرب الذين ساهموا في اثراء الحركة المسرحية العربية وهم الراحلون يوسف ادريس وميخائيل رومان وصلاح عبد الصبور وجلال العشري وكاتب ياسين. ويكرم المهرجان ايضا كرم مطاوع وعبد الكريم برشيد والمنصف السويسي محمد الماغوط وروجية عساف.

ويمنح مهرجان القاهرة الدولي الثالث للمسرح التجريبي ثلاث جوائز لافضل ثلاثة عروض وشكلت لجنة تحكيم من احد عشر عضوا برئاسة الناقد المصري علي الراعي لاختيار هذه العروض.

Digitized by Birzeit University Library

السينما الفلسطينية: ابواب مقفلة وطاقات مهملة؟!

سفيان الرمحي
سينمائي فلسطيني

«بكفي تشتغل في السينما الاسرائيلية.. اعمل افلامك الفلسطينية».

هذه الجملة أوردها الممثل الفلسطيني محمد بكري في مقابلة اجرتها معه مجلة «الكاتب» المقدسية عدد «١٣٥» ضمن مقالة نقدية للفيلم الاسرائيلي «الكأس النهائي»، من اخراج «عميرام ريكلس».

وبرزت اهمية هذا الفيلم من خلال تناوله في الصحافة الفلسطينية وبعض الصحف الفرنسية مثل «الليبراسيون» والتي افردت مقالا مطولا «عن مهرجان القدس السينمائي» الثامن لهذا العام بتاريخ ١٩٩١/٨/٥. وقد قام كاتب المقالة «ب.رينو» باستعراض الافلام الجديدة في «اسرائيل»، وذكر بان صناعة السينما في اسرائيل مستمرة رغم الحرب، وكان تقييمه للفيلم المذكور ان النهاية سيئة جدا وسلبية جدا للفلسطينيين؟!

كما وكتب الاديب الفلسطيني اميل حبيبي (١) مقالا مدح فيه هذا العمل السينمائي وشكر العاملين فيه والممولين مع بعض التحفظات السلبية. وانا استغرب لاديب في مستوى اميل حبيبي ان لا يأخذ في نقده للفيلم بعين الاعتبار رأي الممثلين الذين شاركوا فيه فقد قال محمد بكري وبسام زعمط عن دورهما في هذا الفيلم:

«لقد وقعنا في الشرك الذي بنيناه نحن لانفسنا» (٢).

كسينمائي فلسطيني اريد ان اتطرق لجانب آخر يهمني ولا اريد ان اضيف نقدا او اعادة ما قيل حول الفيلم، لانني اعتقد جازما بأنه لن يشذ عن القاعدة الفلسطينية والفنية التي تعالجها الافلام الاسرائيلية او الغربية في تناولها ومعالجتها للشخصية العربية والفلسطينية وشعوب العالم الثالث عامة، واود ان اشير هنا الى المقالة الهامة والمفصلة التي نشرها «يعقوب اسماعيل» في تقييمه لفيلم «الكأس النهائي» فقد كان شاملا لدرجة انه جعلنا نعيش اجواء الفيلم بموضوعية ودقة في التحليل سواء على الصعيد الفني وكيفية تركيب اللقطات وعملية المونتاج او معالجة مضمون الفيلم (٣) وافضل وصف لما حدث في هذا الفيلم كما قال: «بين السيناريو والمونتاج ضاع الممثلون الفلسطينيون وضاعت قضيتهم».

Digitized by Birzeit University Library

السؤال الذي اريد ان اطرحه الان هو: لماذا لا نحسن الا النقد، او التذمر، او التشكيك؟ ان استمرار ردود الفعل الفلسطينية منذ الاربعينات حول هذه المواضيع، محير جدا، لماذا نلقي اللوم على الاخرين لانهم يصورونا بهذا الشكل؟ لماذا نريد ان يكون الغرب «موضوعيا» وامينا وصادقا في تقديم الشخصية الفلسطينية والعربية؟ اليسوا اعداءنا؟ ان الحرب في ايامنا هذه هي حرب ثقافية واعلامية وهي ذات اسلحة اكثر فعالية من اسلحة الدمار الاخرى ام اننا لا ندري؟! كيف يعقل ان يظل دورنا نحن سلبيا، بمعنى ان نبدي احتجاجنا على الدماية الصهيونية وتسييس السينما الى آخر المعزوفة التذمرية والتبريرية والاحباطية؟!.

ان هذه التساؤلات التي اوردها مشروعة ولا أريد ان أتهرب من مسؤولياتها. لماذا لا نحاول نحن الفلسطينيين تجاوز المراحل البكائية «والرد على الحدث»؟ لماذا لا نخلق نحن الحدث الاعلامي او السينمائي مثل مرحلة السبعينات؟ لماذا تخلينا عن الدور الرائد - نسبيا - بالاهتمام بالسينما الفلسطينية التي لعبت دورا - سياسيا واعلاميا متقدما في المراحل السابقة؟ لماذا لا نعمل ونترك الاخرين يردون وينتقدون؟ لماذا لا ننتج نحن افلاما فلسطينية ونترك للنقاد والغربيين ومعهم الاسرائيليين ان يوجهوا الانتقادات والاتهامات للخلق الفني والابداعي السينمائي الفلسطيني؟ لماذا لا نعيد تحريك الانتاج السينمائي الفلسطيني خاصة في هذه الاوقات الصعبة جدا وبالتالي نقدم الحقيقة الفلسطينية كما نريدها وكما نحب ان نقدمها وعلى مزاجنا؟ ثم لماذا هذا الاحساس الدائم بالضغط؟ انا شخصيا لا استغرب ولا اتعجب ان يقوم اي مخرج سينمائي بصناعة فيلم يكون تعبيرا عن افكاره ورؤيته الخاصة فهذا من حقه حتى وان كان عدوا.

سينما هزيلة:

اذا.. ومن هذا المنطلق من المسؤول عن تراجع الانتاج السينمائي الفلسطيني؟ وعلى من تقع مسؤولية عدم وجود افلام فلسطينية بالمستوى المطلوب؟ ثم على من تقع تبعات ندرة الابداع السينمائي والفني الفلسطيني؟؟ لماذا لا تهتم الجهات الثقافية الفلسطينية بذلك؟ لماذا بعد هذه السنين من عمر النضال الفلسطيني تموت فكرة استعمال السينما كشكل فني وتعبيري لتقديم الحقيقة والشخصية والهوية الفلسطينية، هل يتحمل الاخرون المسؤولية؟ لماذا لا يوجد المسؤول او المسؤولين المؤهلين فلسطينيا ويتم تقدير وتشجيع صناعة سينمائية فلسطينية، كيف

Digitized by Birzeit University Library

يقل يا ترى ان الفلسطينيين تحت الاحتلال تتوفر لهم الفرصة لاخراج وانتاج افلام وثائقية وقصيرة عن فترة «حرب الخليج»، مثل رشيد مشهراوي ويتمكن من المشاركة في مهرجان القدس «السينمائي» المشاركة بفيلمين يسجل في احدهما مشاعر الفلسطينيين أثناء سقوط الصواريخ العراقية على الاسرائيليين ويعرضها في العالم (تمويل هيئة الاذاعة البريطانية ١٩٩١) وقالت إحدى الاسرائيليات بعد مشاهدة فيلم «الايام الطويلة» (٣) «ساعدني - الفيلم - ان افهم لماذا كان يرقص ويغني الفلسطيني اثناء سقوط السكود العراقي على تل أبيب وواضاف آخره اتمنى ان يفهم الاسرائيلي ابعاد سقوط هذه الصواريخ وبالتالي مغزى ومعنى موتهم.

كيف تتوفر لمخرج فلسطيني ان يخرج افلاما وثائقية في داخل اسرائيل بينما نحن في الخارج رغم كثرة الامكانيات لا توفر الفرص لنا؟! لماذا لا يوجد برنامج او خطة لدعم وتطوير الانتاج السينمائي؟.

صرخة سينمائية:

اردد مع الفنان محمد بكري (٤) الذي اكد قدراته التمثيلية على المسعيد الدولي من خلال الافلام العالمية التي مثلها واثار اهتمام كل النقاد والمهتمين بالفن السابع واضم صوتي لصوته واقول له «بكفي تشتغل في السينما الاسرائيلية اعمل افلامك الفلسطينية».. لكن ويا للاسف اخشى يا أخي محمد ان تموت حزنا على السينما الفلسطينية - حاليا.

كثيرة هي المؤسسات والمهرجانات التي تطالب وترغب بعرض الفيلم الفلسطيني، لكن لا جديد لا من حيث الكم ولا النوعية. الم يأت الوقت يا ترى لان نتطور مع الاحداث؟!.

إن الانتاج الشعري والادبي والخطابي لم يعد وحده كاف، والاستمرار في استعمال الاساليب التقليدية في المجال الاعلامي لم يعد ممكننا اليوم، ولم يعد قادرا على تحقيق اهدافه وايصاله الى عالم اليوم وعالم الغد، عالم الالكترونيات.

من هنا اتوجه الى كل من يعنيه الامر والى كل من يملك القدرة على المساعدة ان اوقفوا الموت البطيء للسينما الفلسطينية. هذه الوسيلة الهامة والفعالة والتي لها تاريخ نضالي وفني مشرف اعتمدوا السينما كشكل فني وتعبيري عن الهوية الشخصية والقضية الفلسطينية مثل بقية الوسائل الاعلامية والتعبيرية الاخرى.

الهوامش

١) لقد بالغ وتزلف الروائي اميل حبيبي في مدحه للفيلم وأظن ان هذا يتعارض ولا يتناسب مع من ألف وكتب «ابو سعيد النحس المتشائل» انظر فلسطين الثورة ١٩٩١/٧/٢٨.

٢) راجع مقالة يعقوب اسماعيل في مجلة الكاتب المقدسية آب ١٩٩١ عنوان المقالة «بين السيناريو والمونتاج: ضاع الممثلون الفلسطينيون وضاعت قضيتهم».

٣) صحيفة الليبراسيون - اليومية الفرنسية LIBERATION ١٩٩١/٨/٥. ص. «٢٧».

٤) خاصة دوره في فيلم «حنا كوفمان» للمخرج الفرنسي - يوناني الاصل - كوستانا فراس، كذلك دوره الرائع في «راني وجوليت» انتاج دينماركي وغيره من الافلام.

باريس في ١٩٩١/٨/٨.

برنامج مسرح القصبة للشهر الحالي:-

يومي ٦-٩/٧ فرقة يعاد من الشمال الرامة في ثلاثة عروض عرض في الساعة الرابعة وعرض الساعة السادسة مساءا.

١٢-٩/١٣ اللقاء اليوناني الفلسطيني الساعة السادسة في قاعة مسرح القصبة اما العرض سيكون في قاعة المسرح الثقافي على شرف عازف البيانو الفنان العالمي سردنس اكسارس والمغنية ريم تلحمي.

٩/٢١ فرقة صابرين لاول مرة في عزف على الايقاع فقط حوار مشترك بين العازفين والجمهور في كشف اسرار فني الايقاع.

٩/٢٧ استضافة الشاعرة الكبيرة فدوى طوقان تقديم الشاعر سميح القاسم بجانب عدد كبير من الفنانين وذلك الساعة السادسة مساءا.

Digitized by Birzeit University Library

الحاجة رشيدة

سامي الكيلاني

لم تكن رغبتي في سماع تفاصيل قصة الحاجة رشيدة الياسين نابعة فقط من الرغبة في نقلها مترجمة الى مندوبة لجنة حقوق الانسان التي جاءت الى القرية لكتابة تقرير حول ممارسات جنود الاحتلال في القرية قبل اسبوع، كانت هناك رغبة اكبر تملأ كياني، أود أن أسمع صوت الحاجة رشيدة القوي واحدق في وجهها، اود ان ادير الحديث بأية طريقة لأجعلها تتحدث عن ايام زمان وعن "هداة البال" وعن الحاج طاهر زوجها المرحوم.....

حين رن جرس التلفون كنت أهم باغلاق الباب لاذهب الى السوق، رفع نظام منع التحول عن المدينة منذ ربع ساعة بعد ان دام اسبوعا كاملا ولا بد من شراء بعض الحاجيات قبل فرضه ثانية، وزيارة بعض الاصدقاء ان امكن، امتعضت لسماع الجرس فربما اتاخر بسببه. كان المتحدث صديق يعمل مع هذه اللجنة، قال ان مندوبة من طرفهم تود زيارة قريتي وانهم يرغبون في ان يرافقها شخص من القرية ان امكن حتى يعرف الناس بها درء للشكوك من جهة وحتى يترجم لها اقوال الناس لانها لا تتقن العربية. سألته عن برنامج الزيارة لأفكر باسم مناسب لذلك، قال بأنه اعتمادا على تقرير صحفي في احدى الصحف العبرية فان لديه ثلاثة اسماء يرغبون في سماع شهاداتها عما حدث، وقد تفرز هذه الشهادات حاجة لسماع شهادات اخرى، بدأ بذكر الاسماء: الحاجة رشيدة الياسين، عدنان خليل الناصر... وقبل ان يذكر الاسم الثالث قلت له انني ساتطوع للقيام بهذه المهمة. اتفقنا على الموعد، سانتظر المندوبة في مدخل القرية غدا ما بين التاسعة والتاسعة والنصف صباحا.

آه يا حاجة رشيدة، "ساق الله" على ايام زمان، ايام الدار الكبيرة والعقد والبير والساحة والعفرتة وملبسك الحامض حلو، ما الذي حدث في القرية وكنت الشاهد عليه؟ لم تذكر الانباء سوى ان "بعض اعمال الشغب" قد حدثت في القرية، والصحف لا تصل في منع التجول.

مدخل القرية، حاجز حجري للشباب، الاعلام ترفرف على اعمدة الكهرباء، توقفت على الحاجز، فتحوا الطريق حين تعرفوا علي، لم اتعرف على اي من الوجوه الملثمة، اخبرتهم عن المندوبة التي ستصل غدا، سألوا هل ستصل بسيارة ذات لوحة صفراء ام زرقاء، اجبتهم باننى لا ادري، ولكنني سانتظرها على الشارع المؤدي الى القرية وساكون معها على المدخل.

كان المطر خفيفا في الصباح، الشمس تظهر لحظة ثم تختفي، قطعت القرية من غربها الى شرقها، جوانب الشوارع تحكي بعض ما حدث، اكوام الحجارة والزجاج وبقايا اطارات محترقة. في الليلة الماضية سمعت عما حدث، دخل الجيش القرية بعد صدامات عنيفة، اقتحم الكثير من البيوت، حطم الاثاث، اختفى الشباب، لم تخرج الحملة الا ببعض الاولاد الذين لم يهربوا من بيوتهم لانهم اعتقدوا ان احدا لن يسألهم لانهم لم يشاركو في شيء، صب الجنود كل حقدهم وغضبهم على هؤلاء، كان وائل ابن احمد الجابر احدهم ربطوه بعمود، بدأوا بضربه بالحجارة، اطلقوا النار حول رجليه وفوق رأسه، كان يستغيث ولم يجرؤ احد على الاقتراب منه الا الحاجة رشيدة، دفعها الجنود، وقعت على الارض، ارهبوها باطلاق النار فوق رأسها، لم تتراجع، وصلت وائل وحررته من العمود، اخذته الى بيتها، يبدو انهم لم يكونوا يريدون اعتقاله وهو في تلك الحال.

دار الحاج طاهر، او دار الحاجة رشيدة. حتى قبل وفاة الحاج طاهر كان بامكانك ان تقول دار الحاجة رشيدة من غير ان تغضب الحاج طاهر. الحجارة البيضاء، البرندة الشمالية، شجرات الليمون، احواض الورد، البوابة الخضراء المفتوحة دائما مغلقة على غير عادة. طرقت بقبضتي، جاء صوتها المميز من الداخل مستفسرا، وقبل ان ارد على سؤالها كانت فتاة تخرج من البرندة نحو البوابة لتفتحها، سألتها عن نفسها وعن حال الحاجة، اجابت بأنها بنت الجيران وان الحاجة في الداخل ولا تستطيع النهوض بسبب رجلها.

تقدمت من الحاجة في فراشها، سلمت وسألتها عن صحتها وعن ابنها الغائب واولاده وهل تصلها منه رسائل، عاتبتني على قلة الزيارة فاعترفت بتقصيري واعتذرت. تقدمت المندوبة منها وسلمت عليها وقالت مساء الخير بدل صباح الخير، وكيف حالك، ضحكت الحاجة وعلقت "الدنيا الصبح يا بنت الناس". عبرت المندوبة عن اعجابها بترتيب الغرفة، جو شرقي حقيقي، واعادت على مسمعي اعجابها بالشرق ومحبتها له، الغرفة مفروشة على محيطها بالفرشات الصوفية،

Digitized by Birzeit University Library

كانون النار النحاسي وابريق القهوة النحاسي، الوسائد المطرزة، وكيس مطرز معلق فوق فراشها يحتوي المصحف الشريف. استفسرت الحاجة عما قالته المندوبة، ترجمت لها الاقوال فضحكت، استغربت هذا الاعجاب، "على ماذا تحسدنا هذه الام عيون زرق "واضافت" قل لها ان تصلي على النبي". ضحكت كيف ساترجم لها ستسألني وما دخل العيون الزرق بالموضوع، "يا سيدتي، انا نفسي لا ادري لماذا يخاف الناس في بلدي من العيون الزرق، ربما لانها ترمز للاجنبي"، ضحكت وطلبت مني ان اعرف الحاجة رشيدة بهويتها وانها صديقة امريكية وتدافع عن حقوق الانسان، وافقت بشرط ان اكتفي بالقول انها اجنبية حتى لا اثير حساسية الحاجة ضد الامريكان، لكن الحاجة كانت لي بالمرصاد "اجنبية، من اي بلاد يعني؟".

كانت مهمة الترجمة صعبة كالعادة، عليك ان تشرح للمندوبة كل ما تقوله الحاجة، وحديث الحاجة ذو شجون كثيرة، ووسط الحديث تتذكر الحاجة ان عليها ان تؤكد على دعوة الغداء لك وللضيفة حتى لا تظن هي او تظن انت او احد من الجيران الحاضرين ان الدعوة كانت مجرد رفع عتب، ومما يزيد الامر تعقيدا ان الحاجة ببيتها وحديثها فتحت فيك ابواب الذكريات والمواجع فأردت ان تفتح ذاكرتها على ايام زمان لتسمع منها حديثا عن الزيتون والبيادر والدار القديمة وحين انقذتك من "علقة" ساحنة بحزام الجلد عندما وقفت بينك وبين والدك المرحوم وحلفته بحبيبه الرسول ان يتركك رغم انها هي التي اشتكت امر عفرتتك اليه. هل اعتقدت انها كانت تقوم بمهمة مشابهة حين تقدمت لانقاذ وائل من ايدي الجنود؟ كان بودي ان اسألها هذا السؤال لكنني خفت ان اثير سخريتها وسخرية الحاضرين.

من بين كل تعاريج الحديث وشجونه، وتحت الحاح المندوبة بان تركز الحاجة في حديثها على ما حدث لان الوقت يمضي وامامنا سماع شهادات اخرى، كنت التقط كلمات الحاجة رشيدة وحركات يديها ووصفها الدقيق لما جرى لاشعه في ترجمة تصبح شهادة في ملفات اللجنة، واسأل نفسي: هل سيجدي كل هذا في تخفيف المعاناة؟ قرأت الجدوى في عيون الحاجة، كانت تشعر بالارتياح كلما انهت فقرة من حديثها وافسحت لي المجال للترجمة ورأت اهتمام المندوبة.

اغلقت المندوبة دفترها ووضعته في الحقيبة، شكرت الحاجة ووعدتها بان ازورها قريبا، رشفت آخر رشفة من فنجان القهوة، دعوت الله ان اشربها في المرة القادمة مع محمد في البيت.

احكمت اغلاق البوابة. مضينا نحو شهادة اخرى وكلمات الحاجة رشيدة مرسومة في ذهني صورا كاملة التفاصيل كانني كنت شاهدا على ما حدث.

سمعت الحاجة رشيدة صوت الرصاص، لم يكن بعيدا، سمعت معه رطن الجنود وزعيقهم، رمت صرة العدس التي كانت بيدها، كان الوقت ضحى وكانت تحضر للغداء، اشتهت العدس المجروش، كانت الجارات يستركن النظر من خلف الابواب المغلقة، نظرت الى آخر الشارع، طار عقلها، ولد مربوط بالعمود، لم تعرف ولم تسأل نفسها من يكون، كان الدم يغطي رأسه ووجهه وملابسه، لم يكن بعيدا، مقابل دار عارف الصالح، حملت عصاتها واتجهت نحو المكان، انتبه الجنود لوجودها، صرخوا عليها "روخ بيت"، تقدمت، هجم احد الجنود ودفعها، وقعت على طولها، طارت العصاة، نهضت واحضرتها وتقدمت، هجم عليها مرة اخرى ودفعها، كانت الوقعة اخف هذه المرة لانها كانت منتبهة، نهضت مرة اخرى ومشت نحو العمود، اطلق النار في الهواء، رفعت عصاتها وقالت "ما بتخافوا الله". وصلت العمود، قالت للصبي "ما تخاف يا ستي"، بدأت بحل قطعة الحبل، هجم عليها جندي وشدها، تمسكت بالولد وقالت لهم "هذا ابن ابني"، الظاهر ان الجنود صاحوا بالجندي الذي كان يشدها، تركها ولذهب لجماعته، لكن عقدة الحبل وحضنت الولد، فطنت للجنود، كانوا يبتعدون من الحارة، سحبت الولد من يده، مشت مسافة ووقعت، حضر الجيران ساعدوها هي والصبي، كانت رجلها تؤلمها، وصلت الدار، حضر الدكتور خالد، نظف جروح الولد وضمدها، فحص رجلها، الحمد لله، لم يكن كسرا، مجرد رضوض، لكنها مؤلمة جدا، اعطاها دواء، كتب للصبي وصفة طبية، ظلت الحاجة رشيدة مرسومة في ذهني صورا كاملة التفاصيل كانني كنت شاهدا على ما حدث.

لكنها بعد وقت قليل تسأل نفسها من يكون، كان الدم يغطي رأسه ووجهه وملابسه، لم تعرف ولم تسأل نفسها من يكون، كان الدم يغطي رأسه ووجهه وملابسه، لم يكن بعيدا، مقابل دار عارف الصالح، حملت عصاتها واتجهت نحو المكان، انتبه الجنود لوجودها، صرخوا عليها "روخ بيت"، تقدمت، هجم احد الجنود ودفعها، وقعت على طولها، طارت العصاة، نهضت واحضرتها وتقدمت، هجم عليها مرة اخرى ودفعها، كانت الوقعة اخف هذه المرة لانها كانت منتبهة، نهضت مرة اخرى ومشت نحو العمود، اطلق النار في الهواء، رفعت عصاتها وقالت "ما بتخافوا الله". وصلت العمود، قالت للصبي "ما تخاف يا ستي"، بدأت بحل قطعة الحبل، هجم عليها جندي وشدها، تمسكت بالولد وقالت لهم "هذا ابن ابني"، الظاهر ان الجنود صاحوا بالجندي الذي كان يشدها، تركها وذهب لجماعته، لكن عقدة الحبل وحضنت الولد، فطنت للجنود، كانوا يبتعدون من الحارة، سحبت الولد من يده، مشت مسافة ووقعت، حضر الجيران ساعدوها هي والصبي، كانت رجلها تؤلمها، وصلت الدار، حضر الدكتور خالد، نظف جروح الولد وضمدها، فحص رجلها، الحمد لله، لم يكن كسرا، مجرد رضوض، لكنها مؤلمة جدا، اعطاها دواء، كتب للصبي وصفة طبية، ظلت الحاجة رشيدة مرسومة في ذهني صورا كاملة التفاصيل كانني كنت شاهدا على ما حدث.

Digitized by Birzeit University Library

الخِرَاف .. تأكل الاجاص!

يعقوب الاطرش

التهافت على الشراء بلغ اوجه ذلك اليوم ... جميع الفواكه والخضار نفذت من الاسواق ... كما نفذت معظم المواد الاستهلاكية!

والسبب في غاية البساطة ...

فالناس يشعرون بأن المنطقة على شفا حرب ... وان طبول الحرب قد بدأت تقرع! ... فهناك من يغذيها .. ويريد لها ان تندلع بأي ثمن!

اخذ «ابو علي» يحصي الفلة التي حصل عليها في يومه ...

رقم قياسي لم يسبق له ان حصل عليه من قبل! ...

اكثر من مشتر دخل حانوته للسؤال عن انواع من الخضار او الفواكه، كان يعتذر مبتسما ... ويعد بأن يوفر لهم في الغد كل حاجتهم. نادى على ولده «علي» ... بدأ في وضع الصناديق الفارغة في سيارته البيك اب تمهيدا لمشوار العصر ... .

وعاد الى منزله، بعد ان ازفت الساعة الواحدة بعد الظهر - وهو موعد الاغلاق المتفق عليه - لتناول وجبة طعام ساخنة من يد زوجته ... وليشرب قهوته السادة المفضلة ... ليستريح بعدها قليلا ... قبل ان ينطلق الى غايته لاحضار الفواكة والخضار الطازجة!.

سيحرص هذه المرة على احضار كميات اكبر ... وتشكيلة اوسع ... فالطلب كثير ... وكثير جدا ... ولا بد من توفير كل طلبات الزبائن ... خاصة وان مستيريا التسوق والشراء والتخزين ... بلغت حدا ... لم تبلغه من قبل!.

•••

ابتسم ابو علي «وهو يعني نفسه بربح وفير في الغد حين يبيع كل الحمولة الكبيرة التي احضرها من اكثر من مكان من البساتين والبيارات ... وحتى من ثلاجات الخضار الكبيرة ... رغم علمه ان الخضار والفواكه التي تجلب من هذه الاخيرة تكون عرضة للتلف السريع حين تخرج للهواء ... ولكنه علل نفسه .. بأن لن تبقى لديه طويلا ... اذ سرعان ما تتخاطفها الايدي النهمة ... وفي لمح البصر ... كما حدث في يومه!!.

كان بعض الجيران - بين حين وآخر - يحضرون للشراء .. حين بلغهم ان جارهم «ابا علي» قد احضر نقلة جديدة طازجة من الخضار والفواكه ... وتحسبا لاي طارىء ... فقد اودع حمولته في مخزن المنزل ... وليس في حانوته في السوق العمومي.

تكاثر عدد الزبائن من الجيران الذين تجمعوا في مخزن منزله لشراء حاجتهم من الفواكه والخضار ... خاصة وانها طازجة ومن الانواع الجيدة ... وقد تنوعت لتشمل مختلف الاصناف المتوفرة في ذلك الموسم.

ابتسم وهو يتصور كيف سيكون الاقبال على الشراء في اليوم التالي .. سيستعين بولده وبزوجته ... ربما ببعض الجيران ليقفوا معه ... لتصريف طلبات المشترين ... كما فعل اليوم «وربما اضطر الى استدعاء صهره ايضا» تحسبا للاقبال الشديد الذي يتوقعه.

سرح «ابو علي» يفكر في الربح الذي سيناله في الغد ... والاموال التي ستتكدس في جيوبه ... خاصة وانه انفق كل ما لديه من نقود - بل واضطر للاستدانة من احد جيرانه ... لشراء اكبر حمولة اقدم عليها ... والتي وصفها بأنها «صفقة الموسم»!! ... لذا فسيستعيد غدا كل الاموال التي انفقها ... بالاضافة الى ربح وفير ... لم يكن ليحلم به من قبل حلول هذه الازمة الطارئة التي نشبت منذ اشهر خاصة وان الناس هذه الايام - لا تسأل عن الاسعار .. وانما المهم لديها تأمين حاجتها بأي ثمن! ... وهل ينسى التهافت الشديد على شراء النايلون .. والشريط اللاصق ... والبطاريات ... وغيرها ... وباسعار مضاعفة؟! ... لذا فلن يضير لو رفع سعر كل كيلو ... بشيكل او شيكلين ... فلن يفرق هذا كثيرا لدى المشتري ... ولكنها بالنسبة اليه تفرق الكثير الكثير! ... يمكنه ان يعلل سبب رفع الاسعار ... الى ارتفاع سعرها لدى المصدر ... والى مصاريف التحميل والنقل من اماكن بعيدة ... والتفريغ ... وهي اسباب مقبولة - في رايه - لدى الناس ... في مثل هذه الظروف!.

نظر «ابو علي» الى ساعة يده ... وقبض بعض النقود من مشتر ... واخذ يرقب العدد المتبقي من المشترين ... وهم ينتقون حاجاتهم ...

Digitized by Birzeit University Library

وبين حين وآخر كان يوصيهم بالترفق بالخضار والفواكه ... حتى لا تصدأ الايدي ... وحتى تبدو جديدة طازجة ... لليوم التالي!

اشعل لفافة ... واخذ يدخن في هدوء ...

وطلب من «ام علي» ان تحضر له فنجانا من قهوته السادة المفضلة ... فيما سرح بتفكيره بعيدا ...

ترى هل تنشب الحرب في الخليج؟ ... ام انها مجرد تهديدات لا اكثر ولا اقل؟! ... ولكن كل هذه الاساطيل والمعدات القتالية الثقيلة التي احضرت من كل حدب وصوب ... هل كانت لاستعراض العضلات فقط ... ام انها نذير حرب مدمرة؟!؟ ... الناس - بهذا الصدد - انقسموا الى فريقين ... فريق يرى ان الحرب واقعة لا محال ... وفريق آخر يستبعد حدوثها ... ودليلهم ان موعد الانذار الاخير وهو اليوم الخامس عشر من كانون الثاني قد مضى بسلام ... ودون حدوث شيء ... الا تزايد حدة التهديدات بالدمار الشامل ... وتدفق المزيد من احدث اسلحة الحرب الفتاكة!.

وها هو اليوم السادس عشر ... يكاد هو بدوره ينصرم بهدوء ... وغدا يجيء اليوم السابع عشر ...

ترى ماذا يخبيء الغد؟ هل سيمر هو الاخر بهدوء ... كما مر سابقاه.

- وكما يراهن الكثيرون - او هل تحدث الحرب ... لا قدر الله؟!؟.

الناس في بلبلة ... حرب ... لا حرب ... حرب ... لا حرب...

«ابو علي» كان يجيب مازحا حين يسأل عن ذلك:

- هل تذكرون ما كنا نفعله ونحن صغار ... لعبة الزهرة وعبده حرة ... نمسك بالزهرة ... ونبدأ في قطف بتلاتهاالواحدة اثر الاخرى ... ونحن نعدد ... عبده ... حرة ... عبده ... حرة ... لنرى على ماذا تقع آخر بتلة من الزهرة!... وبالمقارنة نستطيع اليوم ان نلعب نفس اللعبة ... بنزع بتلات الزهرة ... واحدة بعد واحدة ... حرب ... لا حرب ... حرب ... وستعطينا آخر بتلة الجواب ... ماذا سيكون المصير!...

وينتهره اكثر من واحد في شيء من السخرية:

- يا رجل ...هل تريد ان تعلق مصير المنطقة والعالم ... بآخر بتلة من زهرة؟!؟.

العالم يقرع طبول الحرب ... والبعض يسكب البترول ... والكل يهدد ... ويحشد اقوى الجيوش والاساطيل والطائرات ... واحدث اسلحة الدمار الالكترونية ... التقليدية منها وغير التقليدية ... ثم تريدنا ... يا رجل - ان نترك المصير ... لبتلة زهرة؟!؟.

•••

ونام «ابو علي» تلك الليلة ... بعد ان طلب من زوجته ان توقظه مبكرا ... ليسري ببضاعته الى السوق ... قبل الاخرين ... في انتظار البيع الكبير!

وفعلا ايقظته زوجته مبكرا ... ومبكرا جدا ...

كان ذلك في حوالي الساعة الثانية بعد منتصف الليل ... وبعد ان رن جرس الهاتف لعدة احد الاقارب ... بأن حرب الخليج قد بدأت ... وان قوات التحالف ... بدأت تصب اطنان المتفجرات على بغداد!!..

فرك عينيه وهو ينهض مذعورا ... ويتساءل في تشكك واضح:

- هل انت متأكدة ان الحرب قد ابتدأت؟

- هكذا قيل لي ... وتقول مصادر القوات المتحالفة بانهم دمروا معظم قواته وطائراته ... ومطاراته ... واسلحته!...

هتف في ذعر عفوي:

- يا الهي! ... هل تكررت مأساة ٦٧؟!؟.

هرع الى المذياع ... الى الاذاعات العربية ... لا شيء ... الا الصمت المطبق ... كانت هناك اذاعة واحدة وتلفازا واحد يبثان في همة واضحة وحماس منقطع النظير ... وهي تذيع ... وتتبجح ... وتقدم التقارير والصور ... والبيانات العسكرية ... من هنا ومناك!.

ساعات عاشها «ابو علي» كما عاشها الكثيرون ... وهم فريسة للتعلق والتمزق! ... هل حدث ما كانوا يخشونه ... ووقعت المأساة...؟

واخيرا، بدأت الحقائق تتضح ...

وان المعركة - كانت في الاعتبار الاول - معركة اعلامية ... وحربا نفسية ... يقصد منها تدمير المعنويات ... لجيش ... تبين انه مازال قويا .. بل اقوى بكثير مما كان يتصوره الكثيرون ... وانه يقف على قدميه ... في اصرار وتحد!!.

وفرض نظام حظر التجول على البلدة والمنطقة ...

ومع فرضه بدأت مشكلة خطيرة اخرى تبرز لابي علي ...

هذه الخضار والفواكه التي جمعها واشتراها ... بكل تحويشة العمر وبما استدانه ليقوم بتسويقها صباح هذا اليوم بالذات ... ما هو مصيرها ... وقد فرض حظر تجول مشدد ... وتوقف التنقل ... وبالتالي لا بيع ولا شراء؟!... خاصة وان معظم الخضار والفواكه التي احضرها كانت من ثلاجات كبيرة ... وهي معرضة للتلف السريع؟!...

وبدت له مشكلته مستعصية ... وربما لا تقل خطورة عن المشكلة الاخرى ... التي تتحمل تبعاتها دول لا افراد ... ولا تتحدث بلغة الشيكل ... وانما بالمليارات!!!.

ومرت الايام ...

ونظام الحظر مازال مفروضا على البلدة ... ولم يتمكن الا قلة من الجيران ... لا يتجاوزون عدد اصابع اليدين ... من الوصول اليه متسللين عبر البيوت المتلاصقة والاشجار ... لشراء بعض حاجاتهم الملحة من الخضار والفواكه - مخاطرين بانفسهم ... بخرق حظر التجول!...

Digitized by Birzeit University Library

وفي اليوم الخامس استبد الهم والقلق ... بأبي علي ... وهو يرى معظم الخضار والفواكه قد اصابها التلف ودب فيها العفن ... واصبحت لا تصلح للاكل! ... ولذا - وبكل الحسرة والالم والتمزق وبعد تقليب الموضوع من كافة جوانبه - لم يجد امامه الا ان يطلب مضطرا من جاره «ابي ماهر» ... ان يأخذها ليطعم بها خرافه ... التي خضعت هي الاخرى لنظام حظر التجول ... ولم تجد ما تأكله من العشب ... وبعد ان نفذ ما لديها من شعير وعلف .. فكان ان عوضها الله خيرا .. فوجدت لها وجبات دسمة شهية .. من الاجاص والتفاح والمندلينا وغيرها ... مما يتعذر توفرها للادميين!!.

احس ابو علي بأنه يختنق - وتساءل في الم مُمْضٍ هل كان يجب ان تبدأ حرب الخليج في ذلك اليوم بالذات! ... الم يكن بالامكان تاخيرها يوما واحد او حتى بضع ساعات حتى يتمكن من بيع كل فواكهه وخضاره او على الاقل جزءا منها ...؟؟

ضرب كفا بكف في حسرة وتنهد في مرارة وهو يتذكر المثل الشعبي الذي طالما رددته جدته: «الله بكسر جمل ... حتى يطعم واوي» وبالطبع لم يكن الجمل سوى فواكهه وخضاره التي كلفته كل ما يملك ... في حين كان الواوي .. خراف ابي ماهر!!.

علق احد الظرفاء ساخرا:

- عجائب!!! ... البعض لا يجدون خبزا يأكلونه ... اما خراف ابي ماهر ... فلا يطيب لها الا تناول الاجاص والتفاح!!!.

بالعامية

في هالفنجان

صافي صافي

ان شاء الله بييجي الأمان، في هالفنجان، يا طويلة العمر والزمان، وما ينولنا غير الرضى والاحسان، باسم الله، ترحم عبيد الله، قولي: والنعم بالله. المكتوب ما منه مهروب، لو عديت دروب دروب، في هالفنجان، يا بنت الناس والانسان، ان كان خير، يباركه الطير، وان كان شر يظله في البر. ان كان صحيح، ان شاء الله منيح، وان كان كذب، ما ينولنا ذنب.

في هالفنجان:

في هالانثى قاعدة بتحلم، وربنا فيها أعلم، بتحلم احلام، وهي في المنام، بتحلم في الليل، ويلي عليها يا ويل، في الليل تحفظهن، ووجه الصبح تنساهن، بعد الحلم بتمحي، وصعب عليها تغفى بتقوم تفسرهن، ما بتعرف مامتهن، حيايا هن، عقارب هن، وما ادري شو هن.

بتحلم بموت جوزها، بموت اخوها، بموت حدا من جنوبها، واحد عبر عليها، وهي مغمضة عينيها، قال: يا مرة قومي، والله لا تلومي، هيو وقع في السموم. المرة قامت، وبصوتها نادت: يا شيخ وينك وينك، الله ما بيني وبينك، شو شايف بعينك؟ شو اللي يقوله ديني ودينك.

- ما بين الارض وسماها، وقدام الارض ووراها، الله أعلم باحوالها، ان اجا العسر، فهذا امتحان وخبر، يملى قلبك الصبر، والخير يجينا، ونشوفه بعينينا.

حلمته حلم، وتحقق علم، جايي مصيبة، على هذه الديرة، تغطي ذينينا، وتعمي عنينا، لا عالم يردها، ولا ظالم يصدها، واحد كبير كبير، راسه في السماء ورجله على طرف البير، بنهّد حيله هد، وما بيلاقي من حدا مد، وبيبني قدامه سد، بهيل على راسه.

في هالبقرة، ما بعرف، هي سمرة، هي شقرة، ما بعرف، مربرية وملينانة، وعلى ثمها عربانة، وبتفكر حالها حلينانة، بتصول وبتجول، وما بتلاقي إشي في السهول، بتردح ردح، بتصوح صوح، مع الافندية تذل، ومع ناسها بتمل، وآخرتها بتقل، بتحور وبتمور، بتدور وبتهور، وبتقطع انهار وبحور، وآخرتها توقع عن السور.

اما هالثعلب، كأنه بلعب، بيحكي كثير، واقواله بتصير، هو اجرب! هو ازغب! بس قصير وبيخاف كثير، تشوفيه يقرب، تشوفيه يبعد، يروح شمال، يروح يمين، ومالي عليك يمين، في الليل بيظله نينين.

بييجي خبر من بره، وبتنقطع السهرة، الناس في الشوارع وما حدا منهم سامع، هالخبر، وما تشوفي الأبر، بده يفطي ويوطي، وراسك بين الناس حطي.

في هالفنجان:

خبر جاييكي، وتشوفي بعينيكي، لا بيبسطك، ولا بيزعلك، جايي ناس من بعيد، ان شاء الله يحملوا خبر سعيد، هو مصاري، هو ارض، تشوفيها، تشميها، وبتمشي بسلام عليها، ومع الاحلام يحلى المنام.

واحدة بييجيها ولد، على جبينه خير وسعد، في زمانه، يعلى مكانه، ويحقق نصر بعد القهر، عنده لحسات ثنتين، واحدة من مين وواحدة من مين، على الشمال على اليمين، في كبره يردين العين، وله مستقبل في ايامه، يحميه ويحمي اخوانه، عصافير ترفرف على راسه، وبالخير يطمرانه، قولي ان شاء الله.

المكتوب، ما منه مهروب، لو عديت دروب دروب، ان كان خير، يباركه الطير، وان كان شر يظله في البر، ان كان صحيح، ان شاء الله منيح، وان كان كذب، ما ينولنا ذنب.

Digitized by Birzeit University Library

أفعى على هيئة لن تدوم

يوسف حامد

أيشق القلب ولا نرفع دمه
سيفا لامانينا؟!..

***

مائدة تبعد عنا بعد المدعوين الى الحفلة
افعى تأسر السنة المدعوين
ذعر في الناحية المنسية منا
يصفعنا
«بطل» ما أن وقع،
أوقفنا
ذكر يضع على الانثى
شرطا
ان تبقى طول الدهر
هي الانثى
يضع سنين في فوهة البركان
ونسمي ما يجري
فولاذ ياسره صمت
يصعد منه الى الحفلة
كل جبان....
غضب يدعى في عرف المقموعين
وقت يطرد عن اعيننا وقتا
ليظل مكان أمن لن يقمعه قيد؟!
شمس لن تبزغ فوق اكف هرمه
شمس لن تأتي غفلة
انبأنا الميلاد
ان اللاحق ملك السابق
والسابق في اللاحق
يمتد حدادا
ياملهم ايامي مطرا
للاعلى
الاعلى خشب
والانجم فيها ما يكفيها
من قتله
لا تسلك جسدك
حتى ترتد اليه طهارته
يا أطهر...
ما نفقده
لا تهلك، لاتمعن
بغناء
لا يهبط....
أهبط...
فالجو على الارض
لا جوا خلف مداك
لا جوا يعبث بالاصلح
الاصلح لا يصفح
ملح يلهث في سكر
حب يصرخ من صدأ
هذا الصدأ يسمى عنبر
تمتم أن الحرية فرية
ووصية من نالوا الموت
هي الموت...
من نالوا البحر
يداسون على الشاطىء
البحر مداد للكلمات
يملن ما هو آت
مائدة ماجت بسكارى
الناس حيارى
يحترفون جهنم بالحسنى
افعى
ما أنعمها
تدخل في العب
تشق القلب زمانين لا يصلان الدنيا
ايشق القلب ولا نرفع دمه سيفا
لامانينا؟!..

Digitized by Birzeit University Library

قصيدتان

مثير ابراهيم

طيروا كل اليمام!

قفوا نضحك،
نشتد ضحكا
فلقد باض الحمام على الوتد
واطل من شرفات يعرب
يحمل الراية بيضاء نقية
بعد أن فتس ميتا
فقفوا نهتز ضحكا
من بدايات الضحك
نهز خصر الليل
وسط الخيل والرايات
شكرا للزعامات الفتية
فلقد جاع النخيل
واطبق الفتم،
غزالتنا تمر
ولا يمر سوى الكلام
ويجيء في ذاك الشرود
طفل عراقي،
وقد صلى على الرايات
جوعا ركعتين
ومدكتين دعاء
هيا اصرخي يا قدس
من كل القباب
ذهبوا،
وذهبت في الطرود
رسائل الفجر
ذهابا واياب
طيروا كل اليمام مع اليمام
سفرا الى يوم السفر
عادوا،
وعادت في اياديهم اياديهم عدد
فقفي نضحك
نساوي بين ضحك الدم
دمع الدم
والضحك الم
فقد باض الحمام على الوتد!!

ألم، وقيد، وقبرة

كنا، وكان المغيب
على شرفة معتمة
نصيد مع القمح بيدرنا
في زمان النحيب
نكتمل بالندم
بزوال اطل على ليلنا
ثم اشرق من فجر صيحاتنا
فقموا كي نهم
نضحك حتى النخاع
ليتنا ما افترقنا
لما صدا الوقت
حين اقمنا وراء الغروب
استمعنا الى حزننا
استمعنا الى قصة لا تؤوب
عدونا بكل الظلام
سريعا
سريعا
ولما وقفنا
ترأى لنا القيد
قبرة مثل لون الحصيد
تطير الى لونها
في الفضاء السعيد
فأمسكت مني القلم
وتوضأت من المي بالألم!

Digitized by Birzeit University Library

قلب انسحر

سيدي حركش

هايم بَدوّر عَ القلب في الليل
هَمّي معي
واسمي معايّ ،
وِفْ ليلي
صور سمرا
وْمطر
وطْيور،
وِفْ ليلي الهوا مسحور،
مرّة سَحَر قلبي
قمر لِطيور ....!

هايم عَ قلبي من زمان
وِفْ ليلي
الهوا ألوان،
زيّ الفراشات الغريبة عَ الطريق
ترسم وِجه لانسان
عينه قمر صافي
وْوِجهه سحابات الضباب ....!

وِجهي أنا
وِجهي وعينيّ
كانوا معاي
نمشي عَ موجة في البحر
من ميّة وْصخر وْأبر ..
قلبي الغريب
زيّ اللّي شفته
عا روس الشجر ماشي،
وْصَف الشجر عالي
وْطَويل،
وْماشي معاه صف النخيل،
وْماشي القمر،
وماشي أنا وبصرخ عليه ....!
وَاسقط عَ خوفي زيّ قدر،
يسقط على صوتي المطر،
صار القمر يجري،
وْصف النخيل يجري
وْقلبي على روس الشجر يجري،
وانا حافي
وْعِيني عليّ
بِاجري وايديّ
أجري ورا الاثنين
صف النخيل
والقمر
وْقلبي
على روس الشجر ....!

Digitized by Birzeit University Library

التحرك تجاه البيت

جون جوردان

ترجمة: الهام ابو غزالة

صرخت: «اين ابو فادي؟ من سيرجع لي حبيبي؟»

نيويورك تايمز ١٩٨٣/٩/٣٠

لا اريد الحديث عن الجرافة والقذارة الحمراء
التي لم تكمل غطاءها فوق الاذرع والارجل
كما لا اريد الحديث عن
صرخات الليل التي وصلت
الجنود المتسكعين فوق نقاط المراقبة
كما لا اريد ان اتحدث عن
المرأة التي قذفت بطفلها
الى يديّ الغريب قبل ان تساق بعيدا
كما لا اريد التحدث عن
الاب الذي تم اطلاق الرصاص على ابنائه
في الرأس بينما نحروا رقبته امام
عيون زوجته
ولا اريد ان اتحدث عن الجيش الذي مضى في اطلاق
الكشافات في الظلام حتى يتمكن الجنود من رؤية
ظهور ضحاياهم المصطفة على الجدران
ولا اريد الحديث عن
الجثث المتراكمة والرائحة التي تطفو حولها
ولا اريد ان اتحدث عن الممرضة التي تسابقوا في اغتصابها
قبل ان يذبحوها على بلاط المستشفى
ولا اريد ان اتحدث عن لعلعة الرصاص الذي لم
يتوقف عن الضرب

Digitized by Birzeit University Library

ولا اريد ان اتحدث عن الضرب على الابواب
وعن تحطيم الشبابيك
وعن جر العائلات الى الموت
لا، لا اريد الحديث عن الجرافة والقذارة الحمراء
التي لم تكمل عطاءها حول الاذرع والسيقان
لانني لا اريد الحديث عن الاحداث التي لا يمكن التحدث عنها
التي تخرج عن اولئك الذين يجرؤون على
«تطهير» شعب
الذين يجرؤون على
«ابادة» شعب
الذين يجرؤون على
اعتبار الانسان «حيوانا ذا ساقين»
الذين يجرؤون على
«تنظيف»
«شد حبل المشنقة»
«تصعيد الضغط العسكري»
«احاطة شوارع المدينة بالدبابات»
الذين يجرؤون على
اغلاق الجامعات
منع الصحافة
قتل الممثلين المنتخبين لشعب

يرفض «تطهيرهم» له.
هؤلاء من علينا تخليص
كلمات بداياتنا
كلمات الهنا من اعمالهم

لانني اريد الحديث عن البيت
اريد الحديث عن غرفة الجلوس
حيث لا يتم تخويف الارض وتحويلها الى شاهد قبر
اريد الحديث عن غرفة الجلوس
حيث استطيع استعمال لغتي في الحديث
اريد الحديث عن غرفة الجلوس
حيث يستطيع اطفالي ان يكبروا دون خوف
اريد التحدث عن غرفة الجلوس
حيث لا يتم سوق رجال عائلتي ما بين السادسة والخامسة والستين
الى القبر
اريد الحديث عن غرفة الجلوس

حيث استطيع الجلوس دون حزن او بكاء
على من احب
حيث لا اضطر للسؤال عن ابو فادي
لانه سيكون بجانبي
اريد الحديث عن غرفة الجلوس
لانني اريد الحديث عن البيت

ولدت امرأة سوداء
والان
اصبحت فلسطينية
تتقلص مساحة غرفة الجلوس
واين احبائي؟

حان الوقت للرجوع الى البيت

نقلا عن: ولا نستسلم: شعراء امريكا حول لبنان. تحرير: كمال بلاطة. ١٩٨٢.

اسف واعتذار

نتقدم اسفنا واعتذارنا الى السيد خالد بطراوي لعدم تمكننا من نشر موضوعه النقدي حول المجموعة القصصية للدكتور سمير شحادة «الخروج من الدائرة» وذلك لاسباب خارجة عن ارادتنا.

Digitized by Birzeit University Library

بمناسبة العام الدراسي الجديد:

خطاب الى المعلمين والمعلمات

وسيم الكردي

لا يمكن للمدرسة «كمؤسسة تعليمية» ان تحقق الابداع المعرفي والروحي، ببقائها على هيئتها القائمة، هذه الهيئة التي انبثقت في ظروف مغايرة للظروف المعاصرة، التي تبدلت فيها الرؤى لجوهر العملية التعليمية وشكلها، والتي جسدتها ثقافة قديمة منظوية، وعقلية سالفة، هذه الثقافة وهذه العقلية التي مازالت تمارس تأثيرها الفعلي، وتحقق سطوتها رغم انقضاء زمانها، وانهيار مبرراتها. فلم تحظ المدرسة بتغييرات بنيوية في صلب تكويناتها، واسسها، وعلاقاتها المتداخلة المعقدة، حتى تحولت - ولعوامل مختلفة وعديدة -الى مجرد مصنع للشهادات، يمارس تخريبا في الرؤية والتفكير، وتخريبا في العلائق، وتخريبا في الذائقة والوجدان.

واذا ما نظرنا الى التعليم في واقعنا الراهن، سنجد وبسرعة متناهية، اننا امام اشكاليات جدية، ليست جديدة، وليست وليدة السنوات الاربع الاخيرة وحسب، انها اشكاليات موجودة قبل هذه السنوات بكثير، غير ان التراكمات السلبية الهائلة -بسببنا وبسبب غيرنا- التي اصابت العملية التعليمية عبر هذه السنوات الاربع، وما استجد من مشاكل، اظهرت لنا مستوى التدهور والتردي والانهيار الذي اصاب البنى التعليمية القائمة بهيكليتها القديمة، ولعل اختلال هذه البنى، وهشاشتها، سمح للازمة في ان تصل الى ما وصلت له وان نراها بهذا الوضوح القاتل والمحبط!!

ان تغييرا جوهريا في بنيات التعليم الفلسطيني في الارض المحتلة، لا يمكن له ان يتحقق في ظروف لا نمتلك فيها اختيارا حرا لتحقيق رؤيتنا الخاصة للتعليم، كماهية وككيفية، على الرغم من وجود جهود مكثفة، ومن جهات عديدة، تحاول اصلاح العملية التعليمية، غير ان هذه الجهود لم ترق الى درجة الشمولية في النظرة، او قدرة على التغيير الفعلي لما هو قائم. فلا تحقق سوى انجاز محدود، قد تكون ايجابيته الاولى في ان يتحول الى مثال يُقتدى.

ومع ذلك لا يجوز التفريط بقليل يمكن انجازه، ولا يمكن لعب دور المتفرج، او التحرك في السياق المُعَد سلفا، والقبول بما هو قائم، او الانتظار لحين هبوط اله التعليم من جبال الاولمب ليستقر في بلادنا، ويجري التغييرات التي نتوق اليها على مستوى الحلم.

ولذا يمكن لنا ان نمارس فعلا مغايرا نقدر عليه في كثير من الامور التي قد تبدو صغيرة في الاعتقاد الاولي، وقد لا نتلمس نتائجها مباشرة وبسرعة متوخاة، الا انها قد تلعب دورها الجوهري في اعادة صياغة المؤسسة المدرسية تدريجيا، وتهيئتها لاحتماليات التطور مستقبلا، بدلا من اقتصار البحث في القضايا الكبيرة التي تخص مجمل الفعل الثقافي في ارتباطاته بالبنى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ... الذي قد يبدو تنظيرا مجانيا، ولعبة بحثية، ورقصا على ايقاعات النظريات التعليمية والتربوية رغم اهميتها، وسباحة للآراء والتصورات في الفضاء. لا على الارض.

لنأخذ قضايا يمكن لها في حالة اعتناقها، ان تسهم في خلق ارهاصات لتكوين مؤسسة مدرسية من نوع جديد، وهي امثلة تخرج عن ان تكون حصرا:

اولا: ان تبنى العلاقات بين اركان العملية التعليمية على اسس ديمقراطية، تكفل الرأي والرأي الآخر، وتتيح فضاء من الحرية لا يقيده والتابوه الذي وضع خطوطا حمراء متعاقبة عبر العقود الماضية، فلا يجوز مسها أو تجاوزها.

ثانيا: ان يطور العاملون في حقل التعليم من خبراتهم ومعارفهم من خلال المثاقفة، والقراءة، والكتابة ان امكن ذلك، والحوار، والدورات، والورشات العلمية التعليمية.

ثالثا: عدم التعامل مع الطالب على انه متلق سلبي، بل افساح المجال امامه للتعبير عن نفسه بحرية، حيث انه يمتلك طاقات كامنة، غالبا ما يتم وأدها في جنينيتها، لغياب المشاركة والتحفيز، وسيادة التلقين و «الاستذة» بمعناها التقليدي.

رابعا: تهميش المأثورة التي تسلم بالفروقات الفردية والاختلافات في القدرات والموهبة والذكاء، وتكريسها، وتركن اليها، فلا تحاول زحزحة الايمان بها، وترتاح لها وبها.

خامسا: اعتبار الفن والرياضة والتربية المهنية، متطلبات اساسية ينبغي اعطاؤها حقا كافيا.

سادسا: النظر الى التعليم باعتباره مهارة وليس مجرد تقديم المعلومات، واختبار حفظها.

سابعا: ان زيادة عدد الحصص الاسبوعية للمادة الواحدة لا يتيح مجالا لاستيعاب افضل -كما يعتقد البعض- انما تشكل ارهاقا، وعبئا اضافيا يثقل الطالب، فيؤدي الى حدوث الاختلال والاضطراب الذهني والنفسي، وانعدام التوازن.

ثامنا: التعامل مع الطلبة بطريقة تختلف عن تلك التي عاشها المعلمون -في معظمهم- حينما كانوا طلابا، فالطلاب الآن اقل انقيادا واكثر استقلالية، واعتزازا بالذات، لديهم جموح حاد، ورغبة في كسر القوانين والقيود، وشديد الاهتمام بالعلامات والامتحانات.

تاسعا: ان طلبة هذه الايام قلقون، ومتعبون، ومرهقون، تضغط عليهم الحياة في جوانب مختلفة، ولذلك يتطلب هذا الامر محاولة اعادة التوازن لهم من خلال برامج لا صفية، متنوعة.

واخيرا، لا يزعم هذا الخطاب انه رؤية شاملة، متكاملة، او انه الرؤية الوحيدة التي لا تتجاور مع رؤى اخرى او تحاورها، ولذلك نحن في مجلة الكاتب - نفتح صفحات المجلة لسجال حول المدرسة والتعليم والتربية والمجتمع.

Digitized by Birzeit University Library

Digitized by Birzeit University Library

فلتسالوا السيدة العجوز قصيرة القامة !

سمير رنتيسي

في جميع جلسات الاصدقاء هذة الايام، ثمة موضوع واحد فقط قابلا للجدال والتداول والنقاش..

«..المؤتمر..»

«..اذهب..؟!

ام لا تذهب ..؟!

يتحلقون جميعا عند ساعات المساء حول الشاشات الصغيرة، فيخرج هذا «المؤتمر» بقدرة قادر، تماما كما يخرج الطير من جيب الحاوي، ويبتدأ الجميع بمطاردتة في الفضاء الرحب للغرفة الواسعة، تارة من هذة الزاوية ..وتارة من تلك الزاوية الاخرى..

«..اذهب..»

«..لا..لا تذهب..»

«..بل نذهب نحن ..وليفشلوه هم»

«لا..لا..ماذا اذا لم يفشلوه؟!»

«سننقذ عندئذ ما يمكن انقاذة..»

«ليس ثمة شيء هنالك بامكاننا انقاذة..»

«دعنا لا نضيع الفرصة كما نضيعها كل مرة»

«..لا..لا..

وهكذا دواليك يتواصل الجدل حتى يلحظ احدهم صمتي المستغرق وسط احتدام الجدال، فيبادرني سرعان ما يبادرني بالسؤال:-

هة ماذا تقول؟ اذهب ام لا؟!

لكنني بدل ان اجيبه، اظل مشدودا بعيني الى وجه المذيع في الشاشة الصغيرة امامي فيما تواصل شفتاي تمتمتها:-«...وابتَلَعَت حصانا»..

يسود صمت مفاجيء للحظات ويرمقني البعض بنظراته المشدوهة «لغرابة اطواري» لكنهم سرعان ما يعودون الى مواصلة جدلهم المحتدم، واواصل انا التفرس في تفاصيل وجه تلك «السيدة العجوز قصيرة القامة»، علوا..! اقصد تلك السيدة العجوز التي ابتلعت ذات يوم -عن طريق الخطأ-ذبابة»

فما كان منها الا ان ابتلعت عنكبوتا ايضا ليأكل الذبابة داخلها خوف ان تقتلها الذبابة....

وخوف ان يقتلها «العنكبوت»، ابتلعت «عصفورا» ليقضي على العنكبوت داخلها..

وخوف ان يقتلها «العصفور»، ابتلعت «قطة» ليقبض على العصفور داخلها..

وخوف ان تقتلها «القطة»، ابتلعت «كلبا» ليمسك بالقطة داخلها..

وخوف ان يقتلها «الكلب»...ابتلعت «بقرة».. وخوف ان...

...ابتلعت ..وابتلعت...وابتلعت...وابتلعت...حصانا»

فهل نذهب «للمؤتمر» ، ام لا نذهب؟!

حقا..لا ادري..!

فلتسالوا«السيدة العجوز قصيرة القامة»! هذا بالطبع اذا كانت لا تزال حية ترزق!!

Digitized by Birzeit University Library